

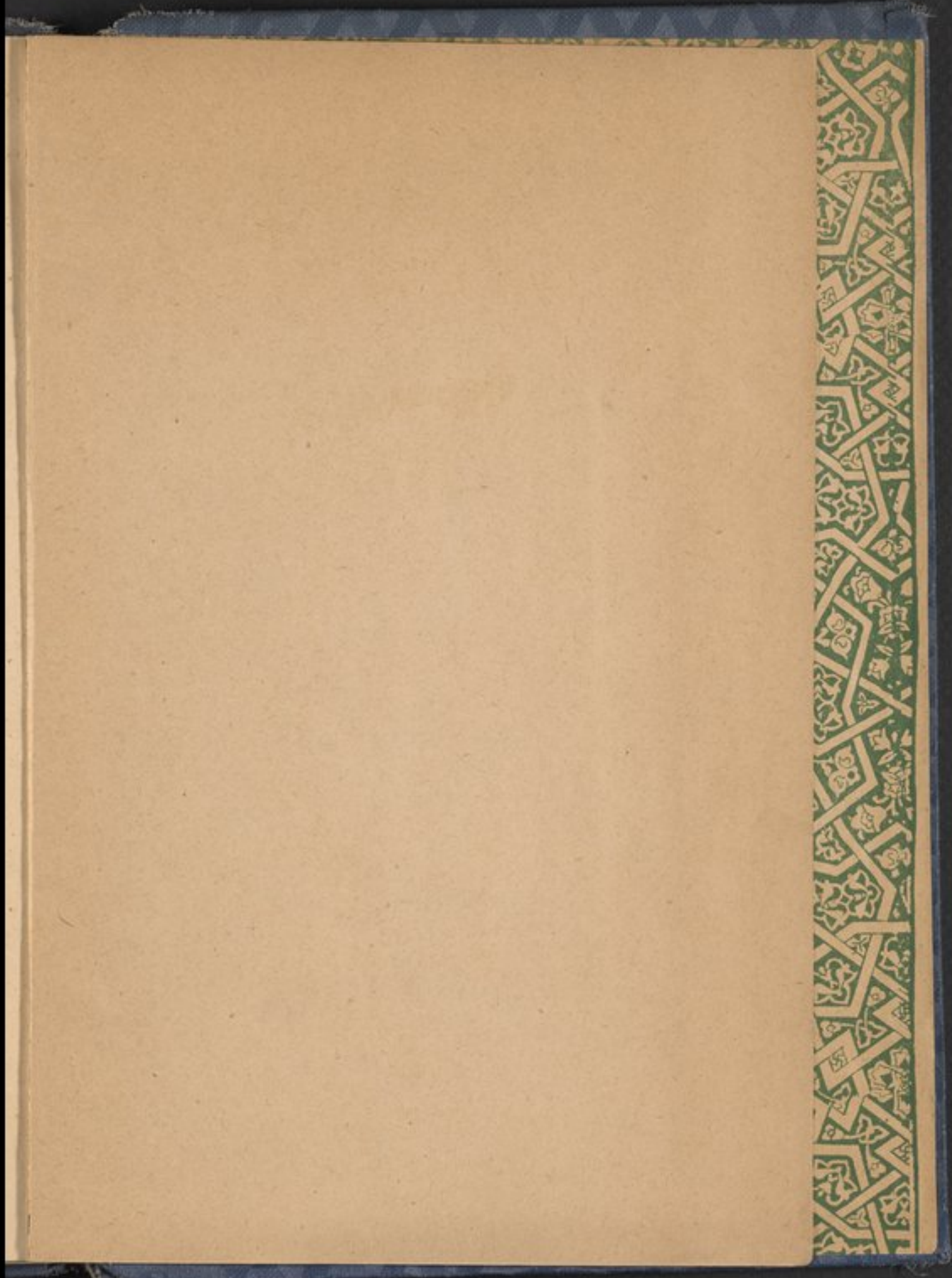
مخازن دارالعلوم

AMERICAN UNIV. IN QATAR LIBRARY
3 8534 01163 0286

Library of
The American University
at Cairo









محاضرات

دار العلوم

BP
130.6
J3
1928

Jāwīsh, 'Abd al-'AZĪZ
Athar al-Qur'ān fī tahrīr al-
Fikr al-basharī

المجموعة الاولى

اثر القرآن في تحرير الفكر البشري

لحضرة صاحب الفضيلة

الاستاذ عبد العزيز جاويز بك

مراقب التعليم الاولي بوزارة المعارف العمومية

١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م

مطبعة النهضة شارع عبد الباقى بصر

297/28
G 748

C 11, 9

تهدير



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نحمدك اللهم على فضل ما ألهمت من لطيف التوفيق الذي كان من خير ثمراته في هذا العام قيام هذه النهضة العلمية في المدرسة باحياء ذلك الفن الجميل من الالقاء والمحاضرة التي تعد وسيلة صادقة لوقايه الالسنفة من عيب الحصر عند ارتياد الصواب وتسليم العقول من زلل الخطل عند استبهاام العاقبة وهي الاداة الصالحة لا بلاغ هذه الثقافات الناشئة وتلك الملكات الغضة في مطارح التحصيل الى أفضل ما تسمو اليه من حب التمر في تمام البيان وكال آلات المنطق الذي قوامه حللوة المخارج واصابة شاكلة الصواب

وكان من اكبر دواعي الارتياح والغبطة أن بدأ ذلك الجهد العلمي المبارك بأنفس ما تهتمز له أعواد المنابر ونحفل به نوادي الادب وهو القول في تحرير القرآن للفكر البشري ولا نقرظ هذا الموضوع ولا نظريه فحسبه انه يعتبر افضل مظهر لانتراعات العقول الجديدة في هذا العصر الحديث . ولا عجب اذا عددنا هذا الحرص الكريم وتلك المبادرة المشكورة ثمرة اخرى لهذا التوفيق في تسجيلنا لهذا البيان الساحر على تلك الرسالة التي ستكون بلا شك من خير ما صرت عليه الاقلام من ذخائر النفائس وخاصة في وقت يتظاهر فيه المفتونون على النيل من هذا الادب القدسي والعيب في تلك البلاغات الربانية والله حسبنا ومنه الكفاية والعون

21979

محاضرات

أثر القرآن الشريف في تحرير الفكر البشري

المحاضرة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

ساداتي : -

لعل من المستحسن قبل أن أتكلم في أثر القرآن الكريم في حركة الفكر البشري وتحريره أن ألم لحضراتكم بنقطة تاريخية فيما كانت عليه الامم الكبرى في طائفة من القرون التي سبقت ظهور الاسلام من التطورات وما تعاقب على العقول فيها من المد والجزر ، والتحرير والاستعباد فان في ذلك ما يعيننا على ادراك مدى ما فعل القرآن في انصاف العقل الانساني واحلاله المقام الذي خوله خالقه منذ فطره وأوجده .

كان أساس القانون العام السياسي في الامبراطورية الرومانية اباحة علنية الاديان وجميع العقائد والافكار وما زال الامر هنالك كذلك حتى دخلت بأوربة الديانة المسيحية التي ابتدأ بها عهد الحجر والحظر على ما سيأتي تفصيله .

لقد كان من أهم الدعاة الى تحرير الافكار من قيود الخرافات والتقاليد والقصص المزعجة التي كان يستعملها بعض شعراء اليونان ، ورجال الاديان فيهم (هراقليتموس) و (ديمقريط) ، ولقد تناول هذان بالبحث بعد المادة الطبيعية أحوال النفس البشرية والشئون السياسية وكان هدفهما ورائدهما في جهودهما العنيفة امتحان كل شيء بالعقل والفكر . وكذلك ظهر (انكساجوراس) فجعل يعلم الناس ان الشمس التي يصلون لها صباح مساء انما هي كتلة من النار ملتهبة لا اله يعبد .

ومعلوم أن حركة هؤلاء الفلاسفة في سبيل تحرير العقل مهدت الطريق لملءاء
التربية المسمون بالصوفية أو السفسطائية الذين أخذوا يظهرن في القرن لخامس
للعيلاد والذين وضعوا في النصف الثاني من هذا القرن قواعد وأصولا للحياة
الاجتماعية من ناحيتي (الاخلاق والسياسة) وبمخروا في الخطأ والصواب والعقل
وقانون التفكير والخطابة وهلم جرا ولكن جميع ذلك كان لا يتجاوز الاقلية المطلقة
التي هي طبقة المفكرين والعلماء ، أما الدهماء والعمامة فكانوا في كل مكان أسارى
الخرافات والمعائد الضالة . على انه لا ينبغي أن يسجل ما كان لا يُتينا في ذلك العصر
من التمتع بحرية الفكر والمناقشة في الشؤون السياسية والخاصة لمهد زعيم نهضتها الحرة
(بريكل) الذي كان يحمي أرباب التفكير الحر حتى لقد كان حصناً للفيلسوف
الجاهد لآلهة أئينا (انكساجوراس) من المحاكمة .

ومن وقائع ذلك الزمن وأحداثه ما يدلنا على أن النزوع الى الخروج على
الاديان كان آوته لا ينجو من العقوبة وان ما كان ينشر من الكتب في ذلك
كان يجمع ويحرق أو يحرم بيعه علناً ولكن الاضطهادات والتنكيلات المنظمة التي
كانت تقام في أوجه المنطقيين (Rationalists) اللادينييين كادت في أواخر
ذلك القرن تختفي وذلك لوفرة عدد هؤلاء واضطراد نموهم وتكاثرهم . ولقد كان من
القضايا المسلمة لدى الاغريق ، ثم الرومان حتى في أرقى أعصرهم علماً ومدنية ومادية
ان الدين نافع وضروري لعمامة الشعوب مطلقاً ، ولذلك كان يقول بفائدتها كركن
للسياسة العمامة حتى من لا يدينون بها كما أن فلاسفتهم ما كانوا يقدمون على نشر
أية عقيدة أو نظرية من شأنها أحداث اضطراب ما في الحياة الاجتماعية . ومن
الافراد البارزين في هذا الميدان من الاغريق سقراط الذي يعتبر بحق أوثك
المرين فكان مما امتاز به وتفرد شديد تعلقه بطريق المناقشة والنقد واجتذاب كل من
يحادثونه ومن يستمعون اليه الى طريق استعراض المعائد المعروفة المألوفة وامتحانها
بعحك الفكر مع افساح صدر العقل لكل بحث واحتمال دون تقييد بشيء من التقاليد
ولا وقوف عند رغبات الجماهير وأما سلك سقراط هذا الطريق في نشره للعالم
واقتياده شباب زمانه الى وجوه الحقيقة ومناهج التفكير الصحيح لان بلاد اليونان

منذ حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد العيسوي كانت ميدان حركة فكرية
ابتدعها أفراد من اليونان كانوا في أول هذه الحركة اما مسترزين أو طلاب شهرة
وسمعة ثم أخذوا يسرفون في أساليبهم الجدلية وطرائقهم التشكيكية غير مبالين ماذا
يصيب العقول من التضليل ولا حاسبين حساباً لوخيم عواقبها ومنكر نتائجها .

ولقد أكثر هؤلاء من الخلط والتخبط وتجاوز ما بين الحق والباطل وما بين
الفضيلة والرذيلة من الحدود حتى التبس الأمر على العقول وخفيت عن بصائرهما
معالم العلم الصحيح وحدوده ولم يتركوا شعبة من شعب التفكير ولا ميداناً من
ميادين المعرفة حتى أعمالوا في أساسها وأركانها معارول التشكيك لا لعلم يملفونه ولا
لصواب ينشدونه ولكن ضلالاً وتضليلاً ، وجهلاً وتجهيلاً ، فلما جاء سقراط بما
أوتى من العقل الراجح والرأى السديد والعلم الصحيح لم يجد بدا أن يخاطب الناس
على قدر عقولهم ويسلك في هدايتهم تلك السبل التي سلكها أولئك في تشكيكهم
وتضليلهم ولو انه انتهج في تعليمهم وارشادهم غير هذه المناهج التي فتنوا وأغرما
بها لما استطاع أن يجتذبهم الى طريقه أو يبلغ بهم شيئاً من مقاصده . والى عهد
سقراط لم تكن التربية العالية من أغراض السياسيين والمفكرين من اليونان .

ومع كون أئينا في ذلك العصر كانت أشهر البلاد في الديمقراطية وأكثرهن
تسامحاً وحرية نجد التاريخ يسجل لنا ما لا يكاد يصدقه الوهم من الاضطهادات التي
كانت تنال المتصدين للدعوة الى حرية الفكر والاحتكام الى العقل .

اشتهر سقراط بطريقته التحاورية وبالجدل والتشكيك والنقد وعدم التقييد بما
عليه الناس إذ ذلك من التقاليد والافكار ولكن كان لدى اليونانيين من الروح
المعادي لتلك الحياة العقلية الجديدة ما أفضى بهم الى محاربة الفلاسفة (وفي مقدمتهم
سقراط) بسائر الوسائل لا سيما الروايات التي وضعوها للسخرية منهم والاستهزاء بهم
وتصوير مثل سقراط زنديقاً غير تقى وداعياً مضرراً حتى لقد نارت عليه الامة
اليونانية آخر الامر فاعتبرته ملحداً ومفسداً لعقائد الشباب وقتلوه سنة ٢٩٩ قبل
الميلاد لهذه الاسباب كما يدل عليه ما جريات محاكمته وما قدمه في الدفاع عن نفسه

وقد علمنا من التاريخ انه قدم للدره ما اتهم به من افساده لعقائد الشباب هذين
الدفينين : -

(١) يجب على كل فرد مهما كانت النتيجة أن يقاوم كل ما يراد عليه مما يراه
ظالما سواء صدر عن شخص صاحب نفوذ أو عن محكمة
(٢) أن لا ينزل مطلقا عن القول بأن في المناقشة الحرة مصلحة للفائدة العامة
وضمانا للعلم الصحيح

بعد ذلك بسبعين عاما اضطر ارسطو ان يفارق ائينا أيضا حذر ان يساق الى
ذلك المصير لاعتباره فيها ملحداً أيضا .

ولقد جاءنا افلاطون انجب تلاميذ سقراط في آخر ايامه بصدمة تراجعت بها
الحركة التقدمية لحرية الفكر والمناقشة بعض الشيء فانه برينا في (المدينة المثالية) انه
لا بد لأهل المدينة من قبول الدين الذي رسمه هو وصوره وان من لا يؤمن به يعاقب
بالمقتل والسجن وان حرية الجدل والحوار معاقب عليها على النحو الذي وضعه .. الخ
على ان تعاليم سقراط في محادثاته ظلت ينبوعا غزير المادة ترعرعت به عدة مذاهب
في الفلسفة . وصدر عن مرتواه جملة من الفلاسفة المعدودين كأفلاطون وأرسطو
واستونفيس وامثالهم ممن انبثت مذاهبهم في اطراف بلاد الاغريق منذ ابتداء
القرن الثالث قبل الميلاد وفتحوا لهذه البلاد مصاريع ابواب الحياة العقلية وانمشوا
في اهلها حركة التفكير والتدبير .

ولقد سبقت لنا المائة بما ترك افلاطون وارسطو من الاثر في تحرير عقول
الآتينيين ولكن من المفيد أيضا ان نورد هنا ان ابيقور على رغم جحوده قيام
السلطان الالهى في هذا الوجود للتدبير والتعريف ونبو بصره عن كل موجود
سوى المادة والماديات قد تخطى بالعقول الخاملة في اقدمه المدهش السريع من
العقبات ما كان يستمضى على الاجيال والقرون . ولقد وجد بعض الشعراء من
الرومانيين في فلسفته وحيا وإلهاما مستطابا اودعه قصيدته المسماة (في طبيعة الدنيا)
ولم تكن فلسفة استويقس في تحرير العقل الانسانى بأقل حظا من المذاهب
المذكورة آنفا بل الحقيقة انها جاءت منظمة ومفصلة لجملة من القوانين الاجتماعية التي

لم يأت سقراط على بيان شيء منها إلام كان يقرر ان القوايين قد تكون غير عدل وان الناس يجرمون . ولقد كان لفلسفة استويقس اثرها في الشرائع الرومانية فان أساس القانون المدني في الامبراطورية الرومانية كان كما قدمنا سابقا اباحة علنية جميع الاديان والجهر بسائر الافكار
أبها السادة :

قدمنا لحضراتكم ان حرية الدين وحرية الجهر بالفكر لازمتا الشرائع الرومانية حتى دخلت الديانة المسيحية في اوربة فضربت هنالك من حولها نطاق الحجر وانغظر لما كانت عليه من التقاليد الوثنية

ابتدأ بها الحجر لان الرومانيين كانوا يعتبرونها شعبة من اليهودية التي تنافر بطبيعتها التقاليد الوثنية الرومانية والتي ما كانت تتمثل لابصارهم سهلة سمحة

ولشدة نفور الرومانيين منها وبفضهم لها واعتقادهم ابتعادها عن روح التسامح اصدر تراجان قانون حكم القتل على من يدين بالنصرانية وان يكن احاطه بقيود لم تيسر السبيل الى الاسراف في القتل ولكن الامبراطور بيوكنتيان اراد تأييد دين الحكومة وتثبيت قدم الحرية التي اغوها قديما فكان ما قرره من تنظيم المذابح في المسيحيين بكل فظاعة وقسوة . وفي الحق ان الذي دفع ذلك الامبراطور الى هذه الجرائم ان المسيحية كانت تقبح ما اعتيد من عبادة الرومانيين لبراطرنهم على حين ان ملوك الرومان كانوا يرون ضرورة ان تخصصهم الشعوب بالعبادة توحيدا لكلمتهم وتعلقا خالصا بعروشهم التي تمثل الامبراطورية جميعها . ولكن بدخول قسطنطين الكبير في النصرانية دارت الدائرة على العقل فكان أول عهده بالاعتقال والاسترقاق . وبعد اذ كان رجال المسيحية في القرنين اللذين سبقا ذلك ينادون بأن التسامح الديني واجب وان العقائد ليست مما يلزم به الانسان جبراً فننوا بدخول قسطنطين في النصرانية واققلب الأمر رأسا لعقب فكان الحكم والملوك لاسباب سياسية غالباً كما كانت الطوائف المختلفة لما بينهما من الاختلافات المذهبية يوقدون نيران الفتن ويقومون المذابح المريعة هنا وهناك حتى سلبت الدنيا الامن والسلام وفقدت الانفس الراحة الطمانينة . ولقد كان من تعاليمهم ان النجاة لا تكون الا بقبول

المسيحية وان من لا يقبلها لا ينجيه فداء من عذاب الدنيا ولا عذاب الآخرة
مهما بلغت فيه الفضائل ومهما قدّمت يده من الخيرات والحسنات ، وأنه اذا مات
الطفل قبل التعميد فإنه في الآخرة يمشى على بطنه في أرض جهنم أبد الأباد .

ومن أقدم رجالهم (سانت اوغسطين) الذي مات سنة ٤٣٠ ميلادية فإنه
وضع نظام اضطهاد من لا يقبل النصرانية واستمر ذلك من بعده متبعاً الى القرن الثاني عشر
وكما حدثت بين النصارى بدعة أو عقيدة تقلل من دخل الكنيسة يشتد القسوس
على اصحابها ويقولون في ايذائهم والتنكيل بهم .

ولقد أمر البابا أنوسنت الثالث قونت طولوز أن يستأصل طائفة من رعاياه
ذات بدعة مذهبية فلمالم يطع أمره أقام عليه حرباً صليبية كادت تغني قومه . وفيها
صودرت املاك ذلك القونت وكسرت شوكته ولم يصالحه البابا الا على شرط
استئصال آثار ذلك المذهب من ملكه .

كذلك اقيم نظام التفتيش في المنازل وغيرها للبحث عن الملحدين سنة ١٢٣٣
ميلادية وتم تنظيمه لهمد انوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ وأدخل في سائر المدن والاملاك
النصرانية وعين لذلك المفتشون من القساوسة ومنحوا من قبل البابوات السيطرة
المطلقة غير مسئولين عن شيء يفعلونه وساعدهم على ذلك ما وضعه البراطرة لعقاب
الملحدين من القوانين القاسية الجائرة

ومع كون فريدريك الثاني الكبير كان حر الفكر أصدر أمراً يقضى بأن كل
من ينكر أو يبتدع شيئاً في النصرانية يعتبر خارجاً ويحرق منهم من لم يتب ويحبس
من تاب ومن ارتد قتل وتصادر املاك الجميع وتدمر بيوتهم . وكذلك أطفالهم
لا يستحقون الرحمة لاهم ولا أنسأهم إلا إذا أخبروا عن ملحدين أو مبتدعين
ولو كانوا آباءهم . وقد جعل فريدريك (الخازوق) عقوبة الاخاد والابتداع وطبق
ذلك الامر في ايطاليا والمانييا خلال ١٥ عاماً (١٢٢٠ - ١٢٣٥ م) ثم عمم نظام
التفتيش في غرب أوروبا . ولهمد هنري الرابع والخامس عوقب الاخاد بالخازوق في
الكلترا بقانون اصدر سنة ١٤٠٠ ونسخ سنة ١٥٣٣ ثم أعيد لهمد الملكة ماري
ونسخ نهائياً عام ١٦٧٦ م)

واستمرت في تطبيقها على المسلمين واليهود بأفزع الطرق الوحشية ولم تنسخ قانونيتها الا في القرن التاسع عشر وكانت خلال ذلك تطبق هذا القانون على من حملتهم على الردة من البيوتات الاسلامية واليهودية . وبالجملة فقد كانت القاعدة التي بنى عليها نظام التفتيش « خير أن يقتل مائة أبرياء من أن يلحد فرد واحد » وبهذه القاعدة صاروا يقتلون ويحرقون لأقل شبهة ولم يكن لأحد حق الدفاع عن نفسه ولا كان لمحكمة أن تقبل في حال ما شاهد نفي

وكما فعل بمخالفى العقيدة النصرانية كذلك فعل بطوائف السحرة فمن ذلك أن البابا « أنوسنت الثامن » نشر في سنة ١٤٨٤ بلاغاً يؤكد فيه أن الطاعون والمواصف من عمل السحرة فنتبعوهم في كل مكان فاتكبن بهم الفتك الذريع وبالخاصة في إنجلترا واسكوتلانده

وفي أواخر القرن الثاني عشر جاء للمقول قبس من دنيا أخرى ليفك عنها أغلالها وسلاسلها إذ أخذت فلسفة أرسطو بواسطة العرب تبسط نفوذها في غرب أوروبا . ولقد كان لابن رشد وأمثاله حظ كبير في تحرير عقول أهل أوروبا كما نالهم كثير من مناهضة البابوات المتعالمينهم فاننا نحمد البابا يوحنا الحادى عشر بفتح تعاليم ابن رشد وبمحكم بضرر وجودها ونشرها كما أن الفس توماس قسيس أكوينو بجنوب ايطاليا سنة ١٢٧٤ قام فأسس للكنيسة فلسفة ازاء فلسفة أرسطو والعرب وهذه لا تزال تتمسك بها الكنيسة الرومانية . والحقيقة أن فلسفته ما كان من شأنها تثبيت العقول البشرية على قرار بل انها في أغلب المواطن كانت تتركها كرىشة في مهب الرياح ساقطة لاستقر على حال من القلق

وقد أجمع المؤرخون على أن الحركة الفكرية والنهضة العلمية دخلتا أوروبا فيما حول القرن الثاني عشر الميلادى من طريقين : (أحدهما) الاحتمكالك الذى ظل نحو قرنين مستمراً بين أمم أوروبا والشرق الاسلامى خلال الحروب الصليبية و (ثانيهما) طريق المعاهد العلمية التي أقامها العرب في الاندلس و نابولى وجزيرة صقلية . والمحققون من المؤرخين يقررون أن من بدى بهم تاريخ النهضة العلمية في أوروبا كروجر بيكون

وأمثاله كانوا من الواقفين على اللغة العربية واللاتينية التي كانت لانفك تنقل اليها علوم العرب ومباحثهم في كل فن . واذا انتحل هؤلاء أو عزي اليهم ابتكاراً أو ابتداع فأنما سبب ذلك ما تمسده غالباً من اغفال المصادر التي أخذوا عنها حتى لقد رجح أئمة التاريخ أن روجر بيكون الراهب الانجليزي الذي يعزو اليه الفرنجة فضل السبق في العدسات والنظارات إنما أخذ هذا عن الحسن بن الهيثم صاحب المباحث العظيمة في الطبيعيات لاسيما الضوء والبصريات . فجاورة أهل أوربة لأهل القرآن الذي حرر العقول وأقام صروح العلوم وزين الدنيا بجميل الفنون هي التي فتحت بصائرهم وكشفت عن حديد أبصارهم أغشية الجهالة التي حجبتهم عن أنوار الهداية أدهارا طويلة . ولو أن هؤلاء الغربيين وقفوا من العقل الانساني موقف أهل القرآن من كل وجه لما تأخرت نهضتهم الفكرية الصادقة عن ذلك الوقت الذي اتصلوا فيه بالمدينة العربية وحرية الفكر الاسلامية ولكن كان لسلطان رجال الدين في تلك العصور واسترقاقهم لعقل الدنيا المسيحية خلالها ما قاوم تقدمهما وأضعف تأثيرهما فلقد وجهوا الفلسفة الواغلة فيهم الى المناحي الدينية وقصروها على المباحث الكنسية وبذلك صرفوها عن وجوها الاصلية وقصدوا بها الى غير غاياتها الطبيعية

ومع أن المرسوم الذي أصدرته الكنيسة السكائوليكية سنة ١٥٢٩ م قاضيا بوجود الانصراف عن جميع المجادلات وألا تفسر التوراة والأناجيل الا بما تقرره الكنيسة قد أغضب كثيرا من الأمم النصرانية . وبرغم أن هذا القرار في الواقع كان من أهم أسباب ولادة المذهب البروطسطنفي فان لوثر صاحب هذا المذهب لم يلبث أن قرر أن للحكومة حق اجبار الشعب على قبول ما رأى أنه العقيدة الصحيحة وان لها استئصال الملحدين المنكرين لها

بذلك الكيد المبيد للعقل الانساني والقدر الانيم به لم تقو الحركة الفكرية على المضى في سبيل حريتها والظهور على ما كان يبديتها رجال الدين من الحروب الشعواء حتى كانت أواخر القرن السادس عشر حينما ظهر فرنسيس بيكون الفيلسوف الانجليزي بمحاملاته العنيفة على الفلسفة الدينية مصدعاً بماوله صروحها الشائخة الرهبة داعيا الناس الى تحرير العقول ومعالجة المسائل العلمية بأساليب الجديدة التي وضعها واقناد

الباحثين اليها فبدأ بذلك عهد التجديد العلمى والتحرير العقلى الذى لانزال المشارق
والمغارب حتى اليوم تنعم بشهى ثماره الدانية القطوف

يبتدىء تاريخ الفلك الجديد بأوربة كما هو معلوم عام ١٥٤٣ م ذلك حينما نشر
كتاب كوبرنيقوس الذى يثبت به دورة الارض حول الشمس ثم زاد غاليليو
بواسطة تلسكوبه اثبات أقمار المريخ واثبات دورة الارض حول نفسها مستدلاً على
ذلك باللمع المظلمة التى رآها فى جسم الشمس فهاذا قابلته الكنيسة ؟ لقد قرر
المكتب المقدس فى فبراير سنة ١٦١٦ أن مذهب قوبرنيقوس سخيف وبمقارنته
بما جاء فى الوصية (وصية المسيح) يعد هرطقة. ولقد حرمت رومة تعليم نظام المجموعة
الشمسية الى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر. وقد أربك هذا التحريم دراسة
العلوم الطبيعية فى ايطاليا . وكذلك أقام البابا الكسندر الرقابة على المطبعة سنة ١٥١٠
كيلا تنشر ما لا ترضاه البابوية من الافكار الحرة ولو كانت حقائق علمية ثابتة .
وفى فرنسا كان الملك هنرى الثانى يعاقب بالقتل كل من يطبع شيئاً بدون ترخيص .
والحقيقة أن الطبع لم يصر حرراً فى أية قطعة من أوربة الا فى القرن التاسع عشر وهو
العصر الذى ضعفت فيه سيطرة الكنيسة وقويت شوكة الملوك والامراء المدنية
وسادت النظم والقوانين الدستورية — ولما تأمنت الجمهورية الديموقراطية فى فرنسا
(١٧٩٢ - ٥) أعيد وأيد القانون القاضى بعدم الاعتراف بالسلطة البابوية
ولكن وجد بجانب ذلك حركة شديدة ضد الكنائس اذ أصدرت باريس أمراً
بإغلاق سائر المعابد بلا تفرقة ولا استثناء مستعملة فى ذلك القوة القاهرة والصرامة
الماضية ولكن حينما جاء روبيير فى رأس الحكومة قرر أن يكون دين الحكومة
عبادة العلى الكبير (ابريل سنة ١٧٩٥) وبعد قليل أحدث دين وضعى جديد
يسمى دين الفطرة وهو دين فلاسفة ذلك القرن ودين شعرائه مثل فولتير . وقواعده
هى القول بالله وخلود النفس والاخوة والانسانية (الرحمة) والانهاجم هذه الديانة
غيرها من الاديان والمذاهب ويسمى هذا الدين الجديد دين محبة الله

(Theophilanthropy) ولما كان عام ١٨٠١ جاء نابليون فقلب هذا الدين رأساً
لعقب وأظهر البابوية ثانية فى الميدان ولم يكن يقصد من ذلك الا الانتفاع بالسلطة

الروحانية والاستفادة منها في حروبه المستقبلية وتوسيع امبراطوريته في عالم الكتلكتة

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر زلزلت عقيدة جماعات من المسيحيين لما كان يذاع اذ ذلك من أن في التوراة والانجيل من التضارب والتناقض ما لا تقوى العقول على قبوله . فتفشى بذلك انكار الوحي وسادت المناقشات العلمية هنا وهناك . وفي القرن التاسع عشر انتظمت الحملات على التقاليد القديمة فاجتذت كثيراً من أصولها وان يكن علماء تلك العصور اختلفوا فيما بينهم ببعض الشيء فمنهم من أنكرها بتأناً واعتبرها غير معقولة وسخيفة ومنهم من لم يصل الى هذا الحد الفشوم . فبسكال الفرنسي كان من المؤمنين بها وبيكون الانجليزي كان يعلن اللاهوتية وان يكن مضمراً للالحاد . وهناك ديسكاريس كان من ناحية أخرى يحاول أن يوفق بين العقل والكنيسة

ولقد نقتفي في بعض الآونة أثر تغلب العقل على الكنيسة في معاملة السحرة فاننا بعد أن رأينا كيف كان جسم الاول عملاً بآية الانجيل « لا تبقوا على حياة السحرة » (Thaw shalt not suffer them to live) يطارد هؤلاء المساكين بكل صرامة وغلظة تشهد في أواخر أحداث عام ١٧١٢ كيف يعتبر المحلفون الساحرة (جان ونهام) من أهالي هرتفوردشير مجرمة تستحق عقوبة القتل فيرفض القاضي قولهم ويبرئها غير متأثر بتعاليم الكنيسة ولا منقيد بالتقاليد السائدة اذ ذلك ولقد نسخ هذا القانون نسخاً سنة ١٧٣٥ ولكن في سنة ١٧٥٢ حكمت محاكم اسكوتلانده باحراق امرأة ساحرة

ومن المذاهب الجديرة بالذكر ما أحدثته في هولندا فيلسوف يهودي اسمه اشبينوتزا وأعلنه الى الناس عند ما حل عقل الفكر وألقى حبله على غاربه . وعقيدته أن هناك الها ليس قائماً بذاته وأنه ليس للانسان ارادة حرة وان القول بالعلمة الأولى أو علمة العلل خرافة وبعبارة أخرى كان يقول كما هو الظاهر بوحدة الموجود أو وحدة الوجود ولا بد أن يلاحظ أن هذه الكلمة كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر رمزاً الى صاحب الفكر الحر فكانت عبارة مقت وتكفير الا فيما ورد

منها في بعض الكتب الدقيقة ولكن الحقيقة أن الذين سموا ذلك بذلك الامم لم يكونوا الا الهيين بيد أنهم ينكرون فقط الوحي

ومن معاصريه لوك ومغزى كتابه الذي وضعه سنة ١٦٩٠ ان العلم جميعه ليس الا نتيجة التجارب وأخضع الاعتقاد في جميع أحواله للحكم العقلي وقرر رفض ما يخالف حكم العقل من الوحي وان الوحي لا يعطى علماً صحيحاً كالذي يعطيه النظر العقلي. وقد وضع كتاباً في موافقة النصرانية للعقل. ولقد حدا هذا الحدو معاصره بايل الذي وضع بعد نفيه من فرنسا الى هولندا كتابه (القاموس الفلسفي Philosophical Dictionary) ومن كلامه ان فضيلة الاعتقاد تنحصر في الايمان بقدرة الله وسلطانه وحده ويقول انه يستحيل أن يتصور الهيون تطبيق صفات الله الارثوذكس على الآله الذي ثبت بالعقل وجوده. ولما قبل فريق من الارثوذكس تحكيم العقل ضلوا وسقط كثير منهم في هاربة الاحاد. وقد تطابق الهيون واشبينوتزا على القول بأن الكتب السماوية تفسر كغيرها من الكتب

ولقد ظلت أفكار الألهيين خفية مكتومة الى سنة ١٦٨٥ م حين أبطلت قوانين المطبوعات فابتدأت إذ ذلك تظهر بعض الظهور برغم ما كان أمامها من العقبات الادارية الأخرى وهي : (١) أنه كان لرجال الدين حبس كل من يطعن في المسيحية أو يظهر آراء تخالف ما لديهم من تقاليدھا أو يأتي بالحاد أو سب المسيح (٢) ترجمة القانون العام سنة ١٦٧٦ (ترجمة قاضى القضاة هيل في قضية رجل يدعى تيلر) القاضية بأن أى عمل أو قول أو رأى يخالف تعاليم الكنيسة يعتبر مخالفاً للقانون العام إذ النصرانية ركن من أركان القانون العام الانجليزى (٣) صدور قانون عام سنة ١٦٩٨ يقضى بأن كل نابت في النصرانية لا يجوز له أن يعلن مخالفته لأصول الكنيسة وتعاليمها. ومن يفعل ذلك يعاقب لأول مرة بالحرمان من الخدمة في الوظائف العمومية وفي الثانية يحرم من الحقوق المدنية العامة مع حبسه ثلاث سنوات

ولقد تولى فولتير وروسو في القرن السابع عشر قيادة حركة تحرير الفكر. وللأخير يعزى كتاب « إميل » الذي أحرق علناً في باريز وصدر أمر الحكومة بالقبض على مؤلفه فما وسعه غير صدر فردريك ملك بروسيا ولكن رجال الدين هنالك ما زالوا

يضيئون الأرض عليه حتى اضطروه الى مفارقة بروسيا . ولقد كان لروسو أعظم تأثير
في الحياة الاجتماعية بعد الذي نشر من نظرياته الاشتراكية في كتابه « العقد الاجتماعي »
(Social contract) الذي أحرق علناً في جنيف

وفي سنة ١٧٧٠ فوجيء القراء الفرنسيون بالدهش يوم ظهر كتاب البارون
دى هولباخ (نظام الطبيعة System of nature الذي أنكر فيه وجود الله وخلود
الروح وقد انتشر في القرن الثامن عشر الاحاد وحرية الفكر رغم مطاردة زعماء هذه
الحركة واضطهادهم . على ان ذلك استمر الى ماوراء هذا القرن فقد حوكم كارلايل
سنة ١٨١٩ وسجن ثلاث سنوات عند ما نشر كتابه (عصر العقل Jage of Reason)
ثم جلبت امرأته وبنته وكثير من بائعي الكتب للمحاكمة بسبب ذلك الكتاب .
وفي أواسط القرن الثامن عشر ابتدأت حركة الحرية الفكرية بعد اذ كانت
المقول هنالك مكبلة مقلولة وبعد أن رأينا كيف نفى أبو فردريك ملك بروسيا
الفياسوف وواف مجرد أنه مدح ديانة كوفشيوس الصينية وما كان لأحد في رأيه
أن يمدح ديننا غير دين النصرانية . فذلك ابنه يجيء على أثره بالتساميح الذي جعل
أرضه موثلاً ومعاداً لسائر المضطهدين والمطاردين من البلاد الاخرى . ثم جاء شكسبير
وغونه بما قدما لعالم الادب نخطوا بالعالم في حرية الفكر خطواتها الواسعة . وقد
زلزل النقلين (كانت الفيلسوف) اذ بين في كتابه (نقد العقل الصحيح
Critic of pure reason) بطلان الاستدلال على وجود الله بهذه الكائنات
وبطلان الادلة التي أقيمت على خلود الروح وادعى ألا مصدر للعالم سوى التجارب
وان يكن في آخر الامر وضع كتابا آخر روحه الهية وذلك حرصاً منه على الاخلاق في
الشعب التي هي ميزان الحياة الاجتماعية . والتي لا سبيل الى اصلاحها وتقويمها فيما ارتأى
سوى أن تصبغ صبغة روحانية ونسند الى مصادر سماوية

المحاضرة الثانية

سادانى :

مما تقدم يفهم أن مرجع العلوم العصرية في البلاد الغربية هو القرن السابع عشر الذى شهد ثبوت نظرية فو برنيقوس والقوة المركزية الجاذبة ونظام الدورة الدموية والقواعد الحديثة للكيمياء والطبيعة . كما شهد معرفة كنه الكواكب والشهب وكيفية تولدها . ولكن هذه المكتشفات ظلت الى القرن التاسع عشر لا تفسر المسائل الكونية الغامضة التى وردت في كتب المهدين الا بدرجة محدودة . بيد أنهم مع ذلك قادت الافكار الى البحث فى الروايات التاريخية التى جاءت بها كطوفان نوح وسفر التكوين . فلقد جاء لابلاس فى أوائله كما قدمنا فقرر أن أبحاثه تفضى الى رفض نظرية وجود الخالق . ثم تقدمت مباحث علم الجيولوجيا . وجاءت بفروض ناطقة بما يناقض فى الجملة سفر التكوين وقصة الطوفان .

وفى عام ١٨٦٣ أوضح الأستاذ ليل الفرنسى (Lyell) فى كتابه قدم الانسان إن الانسان سكن الارض قبل العصر الذى عينته التوراة بأزمان مترامية فى القدم ولكنه رأى إمكان الجمع بينها باعتبار اليوم الذى جاء فى التوراة طويلا جدا لا كإيماننا المألوفة واعترض عليه بأن هذا لا يمكن تطبيقه على الايام التى خلق فيها الانسان ، فان التوراة تفيد أنها كانت كإيماننا .

وقد زعم الفلاسفة المحدثون أن علم الجيولوجيا زرع أركان الاناجيل . ولكنها تركت بابا للقول بوجود النوع البشرى (قبل التاريخ) وما زالوا على هذا المذهب حتى جاء علم الحيوان مبينا أصل الانسان فطبقوا على البشر قانون النشوء والارتقاء وسائر النواميس الطبيعية . وكاد يعتبر هذا من الحقائق الثابتة منذ ظهر كتاب دارون أصل الأجناس Origin of species عام ١٨٩٥

وازدادت الثورة الفكرية وتأججت نيران الجدل عند ما ظهر فى عام ١٨٧١

كتاب دارون منشأ الانسان (The Descent of man) بين الدينيين وغير الدينيين حتى لقد يؤثر عن غلادستون في تلك الآونة قوله « اذا قلنا بنظرية النشوء والارتقاء تكون وظيفة الاله باعتبارها خالقا قد انتهت ، ولو سلم القول بعدم تغيير القوانين الكونية وأنها قارة خالدة على حالة واحدة لاصبحت حكومة الرب في العالم مما لا حاجة اليه » واذا أردنا أن نعرف مركز العقل ومدى حرية الفكر في البلاد الغربية غير الاسلامية حتى في أواسط القرن الاخير فحسبي أن أقنيس لكم كيف صور المؤرخون بلاغاً أذاعه أحد الكرادلة من الانجليز اذ يقولون :

« في سنة ١٨٦٤ أدهش الكردينال ماننج الانجليزى عالم النصرانية ببلاغ يقول فيه « إن لكل إنسان أن يعتقد ما يراه بنظره صحيحاً . وأنه ليس للكنيسة حق الاكراه على العقائد . وأن علم ماوراء الطبيعة يمكن ، بل يجب ألا يتقيد بالوحي ولا برغائب الكنيسة وأن للكاثوليكين حق دعوة من يشاءون من مهاجرى الملل الاخرى . وأن لهؤلاء أن يقيموا صلواتهم جهرة ، وأنه يجب على البابا أن يقيم في سلام مع الرقى العلمى والحرية والمدنية »

فلننظر كيف اعتبر المؤرخون نشر ذلك البلاغ من الاحداث الكبرى التى أدهشت عالم النصرانية مع أنه عند التدبر لم يأت بأكثر مما عرفه العالم الاسلامى وألغى منذ أشرق نور القرآن على القلوب ونجلى تعاليمه الفطرية على العالم الانسانى فرض التفكير وتقبیح التقليد وترفع الحجر عن المقول



مما أسلفنا تعلم مبلغ ما كان بين الفكر البشرى وبين ملل الغرب من الجدل العنيف والصراع الدائم فى الاعصار العديدة حتى كاد ينتهى النصر فى العاقبة للعقل ويكتب الغلب لحرية الفكر

وإنما قلنا (كاد) لأننا لانزال نرى فى بعض ممالك أوربة بل وفى أمريكا الجديدة أقواماً لا ينفكون ينصرون القديم ويفضلون الجمود على ما كان عليه الاولون ، ولو عارض المشهودات العينية وناقض الحجج المنطقية . وهل نسى أحد منا كيف

عاملت في العام الفارط إحدى جامعات أمريكا كبرا من اساندها لترويج مذهب دارون . يوم قامت من حوله ضجة وعجة لم يخفت لها صوت حتى انتهت بفصله عن كرسيه في تلك الجامعة .

حسبنا أيها السادة تلك النبذة الموجزة لتصوير ما كان عليه العقل البشري في الغرب من الازمات التي احتمل مالا يوصف من آلامها وشرورها ادهارا طوالا في سبيل حريته واستقلاله فالآن . فلألم الإمامة خفيفة بما كان عليه العقل في الشرق الاقصى في ذلك الوقت الذي انتعشت فيه الحركة الفكرية ببلاد الاغريق ، أي فيما حول القرن الخامس قبل الميلاد فاقول . بينما يقوم في الشرق الأدنى أكسينوفانيس فيها جم آلهة اليونان ممطرا إياها وابلا من التهمك والسخرية داعيا الناس إلى ترك عبادتها والزراية بسخافاتهما ، وبينما كان هيركليتوس وديوقريتوس يعالجان العقول البشرية لتحريرها من أسر التقليد الجاهلي واجتذابها إلى حظيرة التفكير في ملكوت السموات والارض : نجد في الطرف الآخر من الشرق مثل تلك الحركة العقلية والنفسية تذبهم الخامدة وتقناد الشعوب الضالة الجاهلة في سبيل التفكير والبحث عما فيه صلاح حياتهم الاجتماعية : ففي الهند يظهر بوذا بتعاليمه ، وفي الصين يحارب قونفوشيوس ما كان في قومه وحكام عصره من التفاوت في الطبقات والنزوع إلى الفوضى السياسية والاجتماعية ويهذب ما كان يرى في أمراء زمنه من القسوة والغلظة والجور واستعباد الناس

ومما يلاحظ هنا أن الشرقيين ، وإن اتحدوا أو تقاربا في زمن نهوضهما ذلك فقد تشابها في كنه تلك النهضة وطبيعتها ، إلا أنها كانت في الهند أشد عناية بتهديب النفس وتطهيرها من أدران الاخلاق الفاسدة منها بغيرها من الشؤون العامة المادية ، كما أن النهضة القنفوشوسية في الصين كان هدفها وضع النظم وتقريب الدساتير لضبط الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والمظاهر المادية .

ساداني . . كما جاء رجال الدين في الشرق الأدنى والبلاد الغربية بما بسطنا سالفا من البدع والمظالم والمغارم والطقوس العبادية والعقائد التي ارهقت العباد

وأزهقت الأرواح واستعمادت استعباد العقول وجمت القرون الوسطى شر القرون وأشقاها،
كذلك فعل زملاؤهم في الصين والهند وما حولها مثل ما فعلوا ، فكان من حكمة
العلم الحكيم ورحمة الرفيق الرحيم أن بشرق على عباده وخلاتقه الخائرين في ظلمات
الضلالة الهائمين في أودية الجهالة ليفك أغلال عقولهم ويرفع منزلة نفوسهم ويكلمهم
الى وحيه المنقذ لا إلى تجاريهم العائرة ، وان يقبهم مصارع المجالدات والمصادمات
التي فنيت فيها الملايين من طلاب الحرية والمساواة والمدل من أصحاب المثل
والنحل الأخرى

شاء جلت حكمته ذلك فكتب أن يرسل القرآن بدين الفطرة ليحرر بأوامره
القدسية النفوس المغلولة وينجي من معائر الجهالة العقول الضالة
سترون أيها السادة فيما أقص عليكم كيف سار القرآن الكريم بالفكر البشري في
سبيل الحرية وأين حل بالعقل من المنازل العلية بيد أنه يجمل أن ننزه هذه الفرصة
لنناقش ما قد يجيش بخلد البعض من انه اذا كان دين القرآن هو دين الفطرة وأذا
كان مقياس صحة الاحكام في نظر القرآن هو العقل والمنطق فإذا عسى أن تكون
فائدة الدين ؟ ولماذا لا يترك العقل البشري يجاهد وحده في سبيل الحق والحقائق
حتى يبلغها وينقب عن الخير والشر والنافع والضار حتى يفقه كنهها ويدرك حدودها
ويعلم ما بينها من الفوارق والمميزات؟

الى أمثال هؤلاء نقول أن من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث
والتنقيب والتجريب الى ما تصبو اليه النفس الانسانية من مراتب الكمال في
الاحكام والتصورات والنظم الاجتماعية والمسائل العلمية والآداب الخلقية ، ولكن
في سبيل ذلك عقبتان لا بد من تسنهما حتى تتحقق مثل تلك الامنية احدهما
عادية والاخرى طبييمية .

فأما الاولى فهي : ضرورة انسلاخ عدة من القرون في التجريب والابحاث
التي يقتضيها الوصول الى ما تنشده النفس البشرية من وجوه الصواب المطابقة
للمصاحبة .

وأما الثانية : فهي ناموس النشوء والارتقاء أو التطور التدرجي الذي بالاعتماد

عليه وحده في عالم المعقولات والمعنويات لا يمكن أن يصل العقل البشرى الى مرحلة،
حتى يكون قطع ما قبلها من المراحل

على أن ثمة عوامل أخرى تكتنف سير العقل في أحكامه وأبحاثه وكثيراً ما تقوم منها
العوائير التي قلما ينجو معها من السقوط والزلل وأهم تلك العوامل الانفعالات النفسية
والاضطرابات المصبية التي لا يجمل أحد منا آثارها في شعب الحياة الاجتماعية والعقلية
والادبية . ومن المغالطة أن نبرىء أنفسنا أو ندعى بلوغ الكمال في شيء من أفكارنا
وأحكامنا وعواطفنا ما دمنا نجمع بين جنوبنا نفوساً أماراة ، الى قلوب منقلبة ، الى
شهوات مطاعة ، الى هوى متبع .

فالدين فيما أراد منزله جيل شأنه ضرورى لأصحاب تلك الالهواء المنقلبة
والنفوس الجاهحة .

لذلك وللأسف بالناس أقصر طريق وأقومه وأسلمه يرسل انطالق صفوة خلقه
بالهدى ودين الحق رحمة بعباده أن نزل أقدامهم وتضل أحلامهم وتفتنهم أهواؤهم
وتضيع مئات السنين أو آلافها في البحث عما تصبو اليه نفوسهم من العلم والحرية
والمساواة والعدل وسائر الفضائل والكمالات .

* * *

جاء القرآن بدين الفطرة في كل شيء فطابقت قواعد أحكامه وأصول
آدابه وپرائمه مقتضيات الفطرة البشرية حتى لقد كان من أمهات أصوله فيما هو خاضع
لتأثير المؤثرات وعرضة لتعاقب التطورات أن يكون العرف في كل أمة مقياس تقديرها
ومن هنا كان لا بد أن تختلف المسائل الفرعية باختلاف الأزمنة والامكنة والعرف
الخاص في الشعوب والاقوام المختلفة وبذلك طابق القرآن مطالب العقل غير متنكر
لما فطرت عليه طبيعته ولا متجاهل مبلغ سلطانه وآثاره في الحياة الاجتماعية بجميع شعبها .

* * *

عرف القرآن ان الانسان مفلور منذ بدء احساسه وشعوره على البحث عن
علل ما تدركه حواسه من الاحداث والكائنات فزاد تلك الغريزة تنشيطاً وانعاشاً
وما انفك يقرع الجاهدين على المنقولات المحصورين في مضايق التقليد فلا يكاد

يخلو له مقام من دعوة الى تدبر وتفكير ولا تنفرد له بمجادلة عن حجة يقيمها على
الخصم أو برهان يحاكمه به اليه.

* * *

لم يكن من منافرات العقل أن يأتي القرآن فيدعو الناس الى الايمان بالرسول
والانبياء والاخذ بما كلفوا تبليغه من الاحكام والشرائع والآداب والفضائل فان
ذلك للمتدبر من مقتضيات العقل وطبيعته . ذلك ان العقل مفضول على الشعور
بالحاجة الى ما يدفع عادية الافراد والجماعات بعضهم على بعض (ولولاد فع الله
الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض . . الخ) كذلك هو مسوق بفرزته الى أن
يضع أو يقبل كل ما يرى فيه ضماناً لنظام الحياة الاجتماعية في العالم الانساني . وبما أن
عقل الانسان معروض للافلاس والزلل في معالجة الشعب التشريعية والادبية والعلمية
على ما بسطناه في محاضرة أخرى كان بطبيعة الحال ميالا الى الطمأنينة والسكون
الى من يثق به والى قبول ما يكفيه عناء البحث والتنقيب وبقية مخاطر المغامرات
التي تستلزمها الظنون والتجارب شاخصاً الى وحى ينزله المحيط بما عليه البشر من
الفطر والغرائز والطباع، العليم بما فيه صلاح شأنه واسعاد حياته . وان حرص الانسان
بفطرته على التماس أقصى الطرق المؤدية الى ما ينشده من الرغائب والكمالات ليدفمه
الى طلب القدوة التي تسكن اليها نفسه وتقبل ما يصدر عنها من الاقوال الحكيمه
والنصائح القويمة وهذا هو سر اندفاع العامة بل وأكثر الخاصة الى الاعتقاد في
أفراد من الناس يرجون أن يبلغوا بهم منازل الكمال ويعيشوا بهديهم في سعادة وسلام
من الانبياء والرسل ومن على قدمهم من الدعاة . وانما طبع الانسان على ذلك لانه
يكره أن يتدرج في تعرف الفضائل وطلابها تدرجا قد لا يدرك في غضونه صواب
أمره أو لا يضمن سلامة سبيله فهو حذر الوقوع فيما يخشى عواقبه من شتى الاعمال
والتصرفات والاحكام يميل بفطرته الى الاصاخة والاستماع الى المبشرين والمنذرين
من الدعاة عسى أن يجد فيما يدعونه اليه ضالته المنشودة التي يصبو اليها وقلما عرف
لها إذا ترك هو وشأنه سبيلا .

فالانسان بفطرته السليمة وعقله الحر مدفوع الى الطمأنينة والاعتقاد فيمن

يسلك به سبل السلامة من الخطأ والخلط والزلل حذر أن يفوت عليه جهله وضلال
فكره ومعوج سمعه بعض ما تصبو اليه نفسه من طيبات الرغائب وجميلات
المطالب وبمقتضى هذه الفطرة أقيمت المدارس والجمعيات التمهيدية ورجال المذاهب
الصوفية وانكب عليها الناس من جميع الطبقات ومختلف الاسنان في سائر الازمان .

* * *

تقدم أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة الى انعاش العقل ونحرير الفكر الا تدرع
بها فهو إذا نجاكم فالى العقل، وإذا حاج فبحكم العقل، وإذا سخط فعلى معطلى العقل،
وإذا رضى فعن أولى العقل .

جادل القرآن من جادل من ارباب الملل والنحل والماديين والدهريين فما قارعهم
الا بالبرهان ، ولا دعاهم الا الى البحث والنظر . . من ذلك آية « لهم قلوب
لا يفقهون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم أذان لا يسمعون بها . أولئك
كالانعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون » . وكم من آية قرع فيها أولئك الضالين
لأنفائهم عقولهم أو لاحتباسهم اياها على ما وجدوا عليه آباءهم ولو جيئوا بأهدى منه
كما في آية « وأذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا
أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »

ومن الايات التي هزمت أشياع التقليد المعطلين لعقولهم في كل زمان ومكان
شر هزيمة قوله تعالى في الايات « ولا تقف ما ليس لك به علم . ان السمع والبصر
والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » و « ان شر الدواب عند الله الصم البكم
الذين لا يعقلون » و « ومنهم من ينظر اليك افانت تهسدى العمى ولو كانوا
لا يبصرون »

ولا تكاد تمر بك أية في المجادلات الا وهي محتومة بمثل « بل أكثرهم لا يعلمون »
« قليلاً ما تذكرون » « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » « أنى يؤفكون »
« لو تشعرون » « أفلا يسمعون » « أنما يتذكر أولو الالباب » وهلم جرأ
وقف القرآن الكريم في جميع مقاماته لدى ما اقتضته طبيعة الدين الذي جاء به
فإذا دعا الى عقيدة أو ركن من أركان الدين تجافى عن الالزامات التي لا تحيط بها

العقول ولا تدركها الافهام . وكلامهم بتلقين اصل من أصوله بدأ بالمقدمات النظرية
ثم ينتهي بالتحذير من جمودها عنادا وكفرا وذلك (كما يقول) في آية « ايهاك من
هلك عن بينة وبحيا من حي عن بينة » وآية « لكيلا يكون للناس على الله حجة »
ولم يكن منزل القرآن جلت حكمته وهو خالق الانسان ومالك القلوب والاسماع
والابصار لم يكن في شيء مما أوحى من آياته الا مثال الكمال المطلق اللائق بأسمائه
الحسنى التي منها العدل والحق والخبير فهو الذي لم يجعل من رسله جبارين مسيطرين
ولسكن مبشرين ومنذرين « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر » « فهل على
الرسول الا البلاغ المبين » « افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » « وما نرسل
المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق »
« ما انت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »

ان اول ما بدأ به القرآن في التحاكم الى العقل الايمان بوجود الله فان القرآن
ومن ورائه علماء الكلام وأصول الدين كلهم مجمع على ضرورة طلب تلك العقيدة من
طريق النظر والاستدلال حتى أن منهم من لم يقبل الايمان التقليدي بالله وان
أقوى الغزالي وامثاله بقبول الايمان التقليدي من العامة والدهماء الذين لا يستطيعون
البحث والنظر اما لجهلهم بوسائله أو لضيق مداركهم عن شرائطه فاكتموا من هؤلاء
بالايمان الثابت رحمة بهم ووقوفا معهم عند مدى موسوعاتهم وان كان تقليديا
لم يتم على شيء من دعائم العلم الصحيح والبحث النظري

فأما دعوة القرآن الكريم الناس الى البحث والنظر والتحاكم معهم الى التفكير
والمقل فانه لا يكاد يخلو منها سورة من السور واستيعاب ذلك مما يضيق عنه هذا
المقام فتمتجزئ هنا باقتباس شيء من هذا فيما يلي من الآيات :

(١) وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل
فيها زوجين اثنين . ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون . وفي الارض قطع متجاورات
وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقي بماء واحد وفضل بعضها على
بعض في الأكل ان في ذلك لايات لقوم يعقلون

(٢) ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي

تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون

(٣) أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت

(٤) وفي أنفسكم أفلا تبصرون

(٥) سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق

(٦) أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء لا يتسع هذا المقام أيها السادة لاستقصاء ما جاء من ذلك في القرآن الكريم فلنكتف بما اقتبسناه هنا منتقلين إلى البحث في مسألة تخطط فيها كثير من الباحثين . تلك هي ما مصير من لم يقصر في النظر والبحث ولكنه مع ذلك لم يستطع الوصول إلى العقيدة الحقة في الدين ؟

للعلماء في هذا المقام آراء مبسطة في الكتب المختصة بها ولا يعني هنا إلا أن اعتمد على آيات القرآن دون ما قالوه فأستفتيها في حكم ذلك الفريق من الناس إلا أنني قبل ذلك استرعى أسماكم إلى المسلمات الأولية التالية :

(١) أنه ليس في استطاعة العقل البشري إذا قام له الدليل الصحيح على حكم أن يرتاب فيه .

(٢) أنه ليس في مقدور العقل البشري أن يقول بجواز صحة أمرين متناقضين معاً .

(٣) إذا تعارض حكمان يعتمد أحدهما على الحجج القاطعة كان من المستحيل تكليف العقل أن يغلب عليه سواه .

لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية وجاء كتابه السماوي مصدقاً لها ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها ولكنهم انختلفوا بعض الشيء فيما عن لهم من الآراء تجدهم أجمعوا على قاعدة أنه يجب أن يؤول إلى حكم العقل من الشرعيات ما ظاهره يخالف العقل .

وهل هذا الا وقوف عند حدود المسلمات العقلية ونزول على حكم الفطرة البشرية ، وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والارغام ؟ أم هل كان لدين الفطرة دين البحث والنظر أن يكلف بالمقيدة من قصرت عقولهم عن ادراكها أو من تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عاجزوا عن صدها ومدافعتها ؟

وهل يقول بهذا القول ذلك الدين الذي قوض دعائم الايمان بغير المعقولات وأقام على أنقاضها عقيدة الايمان اليقيني المتحصّل من طريق العقل والنظر ؟

ان الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس في طاقتهم أو أن يلزمهم الايمان بما لم يهدمهم الى حجته وبرهانه . يفقه ذلك من يتدبر قوله تعالى « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »

أذا فلنعمد الآن الى سرد بعض آي القرآن الكريم المناسبة لهذا المقام مكتفين منها بما يلي :

(١) قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ان لم تكفوا بها وانتم لها كارهون ؟

(٢) نحن أعلم بما يقولون وما انت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد

(٣) قد بينا الآيات لقوم يعقلون . انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل

عن أصحاب الجحيم

(٤) ان عليك الا البلاغ

(٥) انما أنت نذير

وخلاصة القول ان القرآن الذي هو كتاب دين الفطرة ما كان ليأتي بما ينافي الآراء القويمة أو نعم حكيمته على العقول السليمة ولم يكن ليكلف العقل الايمان بما لا يعقل أو يحمل الجسم ما لا طاقة له به أو ان يفترض على الانسان ما ليس من موسوعات فطرته . اذا فوظيفته في البشر رسم اقرب الطرق الى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلكة التي يغشاها طلاب الحق والحقيقة لا من طريق الوحي بل من طرائق التجارب ومصارعة شياطين الإنس من الحكام الجائرين وعصابات رجال الدين

المضللين . ولنا على ذلك ما نشاء من الادلة والشواهد لننظر كيف ومتى صححت عزيمة الامم الغربية ازاء الطلاق وتحريم الخمر والقمار وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية وأبيحت حرية التفكير والنشر وتقررت بينهم حقوق الانسان . سائلوا الثورات الدينية والسياسية تذبذبكم مبلغ ما أريق فيها من الدماء وأزهق في سبيلها من الارواح . سلوها تصف لكم فواجبها وأحوالها وما أصاب الامم من شرورها وتكباتها .

هذا ويتصل بهذا المقام كلام في الردة لا بد من بسطه في اجتماع آخر لضيق الوقت الحاضر فانرجئه الى قابل لنستقصى دقائقه وأدلة ما يمن لنا فيه من الرأي وسنضم الى ذلك كلمات جديدة بالتدبير في موضوعين آخرين هما (١) موقف القرآن الكريم باعتباره كتاب دين الفطرة ازاء المعجزات والخوارق (٢) مناقشة ناهوس النشوء والارتقاء وقوانينه ازاء الادلة التي أقامها القرآن ودعا الى النظر فيها بالاستدلال على وجود الخالق جل وعلائم نختم ذلك ببذرة في موضوع القرآن ازاء التكليف العيني وحرية الوجدان الفردي .

المحاضرة الثالثة

موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات

ساداتي:

لست هنا في مقام المتعرض للبحث في أمر وجود المعجزات وخوارق العادات اثباتاً أو نفيّاً ولا أنا في مقام المعرف بكنهها المحصى لانواعها وأقسامها فان شيئاً من ذلك ليس مما تقصد اليه اليوم ولكن الغرض الذي نرمي اليه في بحثنا الحاضر هو موقف القرآن الكريم ازاء المعجزات والخوارق . ذلك لنعلم هل يرى فيها القرآن ما رآته

الاديان الاخرى من اعتبارها أسساً للمقائد الدينية وآيات قاطمة تكفي أن يعتمد عليها الرسل والانبياء في فحام المتحدّين لهم من الامم التي يرسلون اليها؟ أم هل يرى في طبيعتها وقوة حجتها مع دعوته الى التعقل وحضه على النظر والتدبر - ما يخرجها عن دوائر الادلة العقلية والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج؟

فلا يلتبس الامر على حضراتكم ولا يغيين عن ابصاركم هذا المقصد الذي وقفنا عليه مقامنا اليوم فيكم .

ساداني :

امتاز الاسلام من بين الاديان كما أسلفنا غير مرة بانه دين الفطرة والعقل كما امتاز رسوله من بين الرسل بانه الرسول الفطري الذي أرسل بالحق والهدى بشيراً ونذيراً فبزان صحة هذا الشرع المنيف، وقسطاطه المستقيم، هو أن جميع ما جاء به من الاحكام والمراسم . وضروب المواعظ والارشاد ، ليس منها ما ينافر العقل الصحيح ، ولا تأباه النفوس السليمة . إذاً فما كان له أن يتأيد بما ليس من حدوده ، ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته .

كذلك جاء القرآن الكريم بهذا الدين . دين العلم والحكمة . دين البيان والبرهان . ولكن الاقوام الذين أنزل فيهم كانوا أهل جهالة وعناد، وعباد أهواء وشهوات . جهلوا سر الاسلام وروحه . فاستمسكوا بما استمسك به آباؤهم الاولون من طلاب المعجزات والظوارق . ولم يكن طلب تلك المعجزات من الرسول ناجهاً عن نزو وصدق رأى ، ولكنهم كانوا يقترحونها أما عبثاً أو عناداً أو التزاماً لما أَرْضَعْتَهُم الجاهلية الاولى من الضلالات والباطيل وفقدان العلم » وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية؟ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات تقوم بوقنون . انا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير »

ظل النبي عليه السلام كلما طلبوا منه المعجزات يدهوهم الى العمل بمقتضيات
الغطرة ، وبرشدهم الى كنهه وظيفته النبوية . وما هي سوى الهداية الى السبيل القويم
وارشاد الناس قاطبة الى ما فيه الخير والسلامة في معاشهم ومعادهم « قل لا أقول لكم
عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم أنى ملك إن اتبع الا ما يوحى الى .
قل هل يستوى الأعمى والبصير افلا تفكرون »

رأى القرآن أنه لو كانت المعجزات المخارفة للعادة كافية مقنعة لما كذب بها
الاولون بعد إذ الحوا في طلابها . وأجيبوا اليها فرأتها ابصارهم رأى العين . ولكن
عدم وجود صلة عقلية بين تلك الآيات وبين ما اريدت له من اثبات رسالات الرسل
كان من نتائج القرينة انه لا تكاد تنزل الآيات لطلابها حتى يسارع الى نفوسهم الشك
فيها بعد الاصرار على طلابها واللجاج في استنزائها فمنهم من يراها من انواع السحر ،
ومنهم من يكذب بها بغيا وعدوا « وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن
بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم
وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو اننا نزلنا اليهم
الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ايؤمنوا إلا أن يشاء الله
ولكن أكثرهم يجهلون »

ولو أن جهل أولئك الاقوام كان جهل المستفيد المتدبر المستهدى لما أصروا على
طلاب ما قد طلبه أسلافهم ملحقين ثم تولوا عنه بعد إذ جاءهم مدبرين مكذبين .
ولكن كان ذلك منهم جهل عناد واعنات ولهذا لم تقدمهم هدايات القرآن الكريم
ولم تزدهم بيناته الا عتوا واستكبارا « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض
ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعناب فتفجر الانهار خلالها تفيجيرا أو تسقط
السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف
أو ترقي في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربي
هل كنت الا بشرا رسولا » ، « ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال
الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين »

يقص علينا القرآن في غير موضع انه طالما كذب المشركون وأهل الكتاب
الرسول عليه السلام ، وامعنوا في اعنائه وايدائه ، ولجوا في زعمهم انه لو جاءتهم آية
ليؤمنن بها . كما يقص علينا انه لو كانت المعجزات الخارقة من البراهين التي لا يفر المعاند
من الخنوع لها لأمد الله بها رسوله ، ولا أيده بما لا يحيط به من الحصر من ضرورها .
ولكن علمه الله ان هذه الآيات قد نزلت بمن قبلهم فظلموا بها ، واستنكرونها انفسهم
بغيا وعلوا . ولهذا يبين لنا في صراحة ووضوح ان الله سبحانه وتعالى أبنى ان يؤيد
هذا الدين إلا بالمعجزة التي لا تنافر فطرته ، ولا يقوى معاند على معارضتها . تلك هي
القرآن الكريم نفسه . « أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . إن في
ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »

والمتنبع لآيات الكتاب الكريم يجد أن الرسول عليه السلام ما سئل بمعجزة
من المعجزات إلا تلطف بطلابها وأرشدهم فيها الى الاخذ بأسباب العلم والهدى وسهام
تارة بالجاهلين ، وأخرى بالذين لا يعلمون . ولا ترى في القرآن جميعه أن الرسول عليه
السلام جرى أولئك الحمقى في سبيل مطالبهم ، وجاءهم بشيء من المعجزات التي سألوها
وقد جاء هذا صريحا في قوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها
الاولون وآتيناهم الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » قال
ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية « يقول تعالى ذكره وما منعنا يا محمد أن
نرسل بالآيات التي سألها قومك إلا أن من كان قبلهم من الامم المكذبة سألوها مثل
سؤالهم فلما أتاهم ما سألوا منه كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع محيي الآيات فوجولوا
فلم نرسل الى قومك بالآيات لآنا لو أرسلنا بها اليهم فكذبوا بها سلكنا في تعجيل
العذاب لهم مسلك الامم قبلهم »

وما كان مبعث الاضراب عن إجابة مطالبهم والخافهم في سبيل المعجزات عجز
الله تعالت قدرته عن تبديل شيء من ظواهره الكونية العادية . ولكن علم الله منهم
ما علم من آباتهم الاولين لجاح في الطلب ، وجنوح عن التصديق وجهل بمكانة دين
الغفرة ، وضلال عن ركته المتين وهو مطابقته التامة لمقتضيات العقل السليم

« وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ۱۱ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقد أسلفنا أنه لو كانت دلالة المعجزات الخارقة للعادة على الرسالة أو النبوة قطعية اقناعية لما آمن المعاندون في تأويلها تارة وانكارها أخرى وما قوله تعالى « ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » إلا لبيان هذه الحقيقة. ذلك أن الخوارق للعادة ضرورية شتى . فمنها ما يظهر على أيدي المصطفين الاخيار من أنبياء الله ورسوله ، ومنها ما يظهر على أيدي غيرهم من السحرة والمشعوذة ، ومنها ما يظهر على أيدي أرباب الرياضات الروحانية حتى من المجوس والمشركين .

لهذا كان من المحتملات القريبة أن يتشكك الناس فيما يقارن دعوى الرسالة من المعجزات التي يراد منها اقناع المدعويين الى صحة الرسالة . واثبات أن الرسل صادقون في دعواهم السفارة بين الله وبين خلقه في تبليغ أحكامه وآدابه ولا يكفى في التفرة بين المعجزات وغيرها من الخوارق التي تظهر على أيدي غير الانبياء انهم مبعوثون من قبل الله الى خلقه لتبليغهم أحكامه وعظاته . فقد عرفنا من آيات القرآن أن الكافرين كانت تأتيهم الآيات بعد اذ يطلبونها من أنبيائهم ورسلمهم فتارة يقولون هي سحر مبين ، وأخرى ينكرونها معاندين

فلاسلام فيما يصوره القرآن الحكيم قد امتاز عن غيره من الأديان الأخرى بانه دين اليقين والنظر ، لا دين خوارق العادات وما وراء العقل من الآيات . ذلك قوله تعالى « قد بينا الآيات لقوم يعقلون إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً »

فآيات القرآن الكريم لم تنزل ليقنع بها من شغللتهم أو هامهم ووساوسهم ، وتمطلت في حنايا جماجمهم عقولهم ومداركهم فسيحوا في لجج من الوهم ، وحججوا بعنادهم عن النظر والفهم ، ولكنه جاء لمن يعقلون ويفقهون ان الله لا يرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين . وان معيار صحة رسالات الرسل صحة ما يأتون به من البلاغ السماوى ، وضمان ذلك لسعادة الانسان في حياته الدنيا والأخرى .

ولقد بلغ حرص الرسول عليه السلام على قومه حداً كان يكبر عليه فيه لإعراضهم

من دهورته ، واصرارهم على مخالفته والكفر بآياته . حتى كأنما هو بلا مرأه مستول
هنهم وحامل لاوزارهم . فانزل الله في تسليته وراحة نفسه من عناء الحزن عليهم وآلام
الرحمة بهم قوله « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » « ان عليك إلا البلاغ » « انما
أنت نذير »

ولكم شق على المصطفى (ص) انصراف قومه عن هدايته بسبب تخلف المعجزات
فكانت نفسه الشريفة تطمع أو نه في أن ينزل الله شيئاً من آياته بجسارة لا ولئك الضالين
المعاندين ولكن الله الذي أدب رسوله وأكمل عقله أراه في آية « وان كان كبر عليك
اعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء فتأتهم بآية ولو
شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » أراه في هذه الآية الكريمة أن
من الجهل بجسارة الجاهلين وأن ليس للعاقل أن يحرص على الخراف الضالة من أشباه
الانسان .

وهل كان للرسول عليه السلام بعد إذ بلغ رسالات الله على وجهها أن يضيق
صدره بما كانوا يعرضون ، وأن يحزنه الذي يقولون أو مصيرهم الذي يوعدون .
فأنهم ما كانوا يسكذبونه . ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . فما عليه إذا من
حسابهم من شيء بعد إذ قام بما أحمله من التبليغ المبين « واما ترينك بعض الذي نعمهم
أو نتوفينك فأنما عليك البلاغ وعلينا الحساب »

وهنا مبحث يجب أن نعجل الالمام به لكثرة ما خاض فيه الخائضون . ذلك أن
آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه لا إكراه في الدين ، وان الرسول
غير مكلف بشيء سوى التبليغ المبين ، والتذكير بآيات الذكر الحكيم « فذكر إنما
أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » . وهل كان للرسول عليه السلام أن يقوم في قومه
مقام الجبارين فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد اعراضهم عن دينه بعد آية « نحن أعلم بما يقولون
وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »

فلاسلام الذي هو دين الفطرة ، وجمع السمكالات القدسية ، والآداب الالهية
ليس بذلك الذي يتذرع اليه بالقسوة والغلظة ، وبروج في العالم بالسيوف والنيران .
ومن الاوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون في نفوس العقلاء بالقوة والقهر ،

ولكن لها وسائل معروفة لا تلتبس الا بها . فنها البرهان العقلي ، والخطابة والشعر والتقليد . ولكل من هذه الانواع تأثير في نفوس الناس بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والنحصيل . وانما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التي ورثها بمحض التقليد والاقتماد ولو كانت غير معقولة ومنافرة للعقل السليم . وأقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث ، وقولهم ان عيسى صلب ليفتدى اتباعه بدمه وليكفر عن العالم جميعه ما ورنوه كرها من سيئات آدم أبي البشر وهكذا من العقائد الغير اليقينية

كذلك من عامة المسلمين من لا يمكن أن يتطرق الريب والمرية الى عقيدته على جهله وعدم تحصيله وقصور عقله وما هي سوى قول تلقفه ممن يثق به ، أو أمة وجد عليها آباءه فاقننى فيها آثارهم

وبالجملة ما كان للعقائد أن تتكون الارغام والقهر . ولا الاسلام الذي هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم عن دركه ، أو نزاحت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعنها .

أما المشركون وأهل الكتاب فقد ارتنا السنة المطهرة والقرآن الحكيم أن الرسول عليه السلام قد اكتفى منهم في حقن دماهم واحترام حقوقهم بالجزية اذا أبوا الاسلام يدفعونها في سبيل حماية ارواحهم واموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وعليهم فهم اذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق وعليهم منها ما عليهم . وما خولف هذا الحكم في أرض جزيرة العرب الا لمقصد قد أتى على بيانه بيانا شافيا فيما يلي

وحسبنا في ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أرى الا مسلما » . وقد أجلاهم سيدنا عمر في خلافته وأجل لمن قدم منهم تاجراً ثلاثة أيام . أما المشركون وأهل الكتاب في غير أرض الجزيرة فقد علمنا أحكامهم ، أما أهل الردة الذين دانوا لله ، والتزموا الاسلام ، ثم ارتدوا عنه إما إلى غيره من الاديان وإما لشبهات وشكوك قامت بصدورهم فصدتهم عن البقاء على شيء

من أصوله ويسمى الفقهاء جميع هؤلاء المرتدين ويفتون فيهم بالقتل اما بعد الاستنابة أو دونها على خلاف لهم في ذلك ، أما هؤلاء فان علينا أن نبين هنا رأينا فيهم طبق ما يدل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية فنقول .

ان ذكر الردة جاءنا في موضعين من القرآن الكريم . ففي سورة البقرة جاءت آية « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يردكم عن دينكم عن دينه فيمت وهو كافر فأنتك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »

وفي سورة المائدة جاء قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا من يردكم عن دينكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »

وظاهر ان هاتين الآيتين لا تدلان على معاملة أهل الردة بما أفتى الفقهاء من القتل لمجرد الرجوع عن الدين . وكل ما دلت عليه آية البقرة المذكورة آنفاً . أن المرتدين مطرودون من رحمة الله تعالى . ومعنى الردة هنا على ما يظهر من سياق الآية ومن روح الكلمة أن معناها الارتداد عن الدين أي الكف عن الجهاد في سبيله . والارتداد عن منازلة الأعداء الذين كانوا لا يفتنون يقاتلون الرسول واتباعه ليفتنوهم عن دينهم ويرجعوهم كفاراً بعد إذ آمنوا .

يدلك على هذا التأويل ما جاء قبل ذلك من الآيات . قال تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام . وإخراج أهله منه أكبر عند الله . والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »

يستنبط من ظاهر هذه الكلمات الكريمة أنها نزلت في قوم من المسلمين كانوا يهيمون بالكف عن القتال . ويرغبون عن أن يدافعوا عن دينهم . وأن يبذلوا ديارهم وأرواحهم في نصرته وتأييده بغضا للقتال . وضنا بالأرواح . وما علموا الجهادهم

انه ليس وراء اخلاذهم الى العدو وأعراضهم عن صده سوى أن يستند لهم ذلك العدو ويتعبد لهم . وأن الموت الذي يفرون منه لا ريب ملاقيهم . الى ذلك بشير قوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » ولو أن أولئك النفير أدركوا بسهولة ما وراء هاتين الكلمتين القدسيين من الحكم البالغة والمنافع العظيمة ، ما سألوا بعد ذلك رسولهم عن القتال في سبيل الله خلال الأشهر الحرم . ولكن وهنت قلوبهم وتمكن حب الحياة من نفوسهم ، وقصرت أبصارهم عن درك ما وراء ذلك من الذل الخالد ، والمسكنة الأبدية ، واستهانوا بأمر الفتنة في الدين ، فجنحوا الى التسليم وإغمد السيوف سائلين الرسول عليه السلام عن القتال خلال الشهر الحرام كأنهم يريدون بذلك أن يمجدهم من تحريم هذا الشهر معذرة عن القعود عن مقارعة الأعداء وحماية دين الله من الأذى والمكر السيء . ولما كان ذلك الرهط على ما وصفنا من الضعف والجنوح الى النزول على حكم أعداء دينهم من المشركين وأهل الكتاب إجماعا في استنفارهم وحثهم على منازلة أعدائهم قوله تعالى بعد ذلك « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ذلك حكم الله في المسلمين إذا ما فتنوا عن دينهم وقاتلهم عن البقاء عليه أعداؤهم . وما جزاء من يجبن عن لقاء عدوه ، ويرغب عن بذل روحه في سبيل حماية دينه وملته « إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون »

فألردة في هذه الآية الكريمة ليست الفسوق عن العقائد الإسلامية لشبهة قامت بأنفس المرتدين ولكنها ردتهم عن نصره الإسلام ، ونخلفهم بأنفسهم عن تأييده ، وحماية دماره ، بينما أعداؤه لا يفتنون بناوئمه ويكيدون له ولا يزالون يحاربون رسوله والقوامين عليه .

وهذه الآية وأن لم تنص على قتل أولئك المرتدين . فقد أرتنا السنة المطهرة كيف قاتلهم الرسول وخليفته أبو بكر وعمر من بعده . وكيف نكلوا بهم اذ كفوا

عن الدفاع عنه . ثم انقلبوا خوارج عليه . بحاربونه ويقتلون أهله تأييداً للمشركين من أقوامهم وتوهيناً لبنياته . بعد اذ ظهروا على عورات المسلمين ووقفوا على مواطن الضعف فيهم . ذكر صاحب الكشاف . أن إحدى عشرة فرقة من العرب ارتدت عن الاسلام . ثلاث في زمن الرسول عليه السلام . وسبع في خلافة أبي بكر . وواحدة في عهد عمر . وقد كفى الله الاسلام ما أرادوه من تخذيله وتوهينه وتنقيض أركانه . ذلك قولنا في آية البقرة . أما آية المسائدة فإن المتدبر للآيات السابقة لها في القرآن الكريم يتبين أنها لانكاد تخرج عن المعنى الذي نزلت فيه آية البقرة . ذلك أن قوماً من منافقي المسلمين قد وهنت قلوبهم وعزأهم فعملوا بخشون أن تصيب المسلمين دائرة فيظهر عليهم أعداؤهم من أهل الكتاب . هنالك جعلوا بخاطون اليهود ويسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . يريدون بذلك أن يتخذوا لهم بدأً عندهم حتى اذا كان ما حسبوا وخشوا سلموا من بطشهم وأذاهم . وفي هؤلاء نزلت الآيات :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منكم فإنه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين »

اتخذ هؤلاء المنافقون بطانة لهم من غير المسلمين ليكونوا لهم شفعاة إذا كان ماخشوا وحسبوا ، وأسرعوا خفية الى الاندماج في سلك أهل الكتاب اتفقهم سرعة غلبهم وظفرهم بالنبي عليه السلام وأشباعه فكفوا بذلك عن نصرته وتأييده ومظاهرته على أعداء دينه من اليهود والنصارى . ولولا أن الله تعالى أنى للمسلمين « بقوم يحجبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » لأصاب المسلمين من ذلك المكر السوء الذي بيته أولئك المنافقون ومن تخلفهم وارتدادهم وتوليهم عمداً عن نصرته دين الاسلام ومناصرة أهله ماقد كان يمحوا آثار التوحيد ويرفع منار الشرك في الأرض

فالارتداد في آية المائدة كما رأيت من السياق ومن نظم تلك الآية نفسها إنما أريد به تولى أولئك المرتدين عن نصره الاسلام والتخلف عن دره الأذى عن اخوانهم المسلمين تاركينهم لغارات أعدائهم بعد اذ اتخذوا لدى هؤلاء من الأيادي مازعموا أنه وقاية لأسبابهم وعصمة لدمائهم إذا ما كتب لهم الغلب والظفر بالمسلمين ومن الآيات التي جاءت في هذا الموضوع واختلف فيها أهل التأويل قوله تعالى « فإلکم فی المنافقین فتنین والله أركسهم بما كسبوا أنريدون أن تهودوا من أضل الله ومن يضل الله فلن نجد له سبيلا . ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فاقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ستجدون آخرين يريدون أن يامنوكم ويامنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يمتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سطاما مينا »

أي ماشائكم أيها المؤمنون في أهل النفاق فتنين (١) والله ردهم الى أحكام أهل الشرك المحاربين في أباحة دمايتهم

نزات هذه الآيات على رأى فيمن تخلفوا عن الحرب في وقعة أحد وانصرفوا الى المدينة قائلين « لو نعلم قتالا لاتبعناكم » وهذا التأويل يلحق هؤلاء المتخلفين بالغارين من الحرب الذين تبيح القوانين الحربية في كل زمان ومكان ودولة دمايتهم . على أن الآيات السابقة قد جاءتنا بحقن دماء طائفتين من هؤلاء وهما (١) من يصلون الى قوم بينهم وبين المسلمين مودة وميثاق وعهد (٢) من جاءوا المسلمين وقد حصرت صدورهم أى ضاقت عن الميل الى مقاتلة المسلمين أو مقاتلة اقوامهم فلم يجعل الله بذلك سبيلا للمؤمنين على أنفسهم هؤلاء وأمواهم وذراريهم ونسائهم .

(١) تفسير الطبرى جزء ٥ صفحة ١١٢ الى ١١٨ مع بعض تصرف .

وقال آخرون بل كان اختلاف المؤمنين في قوم من أهل الشرك كانوا أظهروا
الاسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة
لهم فقالوا أن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس .
فأصحاب هذا التأويل على ما وصفنا يرون أن الآيات السكرية نزلت في منافقين
غير مسلمين ولكنهم خوثة غدارون

والقول السديد الذي ارتضاه الطبري في تفسيره وهو الذي أراه أنها نزلت في قوم
من أهل مكة لا المدينة ارتدوا بعد إسلامهم فكانوا حربا على المسلمين مع قومهم
ويؤيده قوله تعالى « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا » فإن الهجرة لم تكن
فرضاً على أهل المدينة ومع ذلك فهي مقيدة باستثناء الطائفتين الواردتين في قوله
« الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم أن
يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل
الله لكم عليهم سبيلا »

ومن هنا يتبين أنه لا علاقة لهذه الآية بمسألة الارتداد عن الاسلام مجرد
شبهة لم يستطع ردها وفكرة عجز صاحبها عن دفعها

وكذلك يكون القول في الآيات السكرية (١) « لا ينهاكم الله عن الذين لم
يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم أن الله يحب
المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا
على أخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون »

على أن الطبري وغيره يقولون بأن هذه الآيات فيها تختص بمشركي جزيرة
العرب قد نسخت هي وما قبلها بآية « فاذا انسلكوا الشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث
وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد أن تابوا أو أقاموا الصلاة أو آتوا الزكاة
تخلوا سبيلهم » وكذلك بآية « برأة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين

فسيحوا في الارض أربعة أشهر » اذ جعل الله لهم أربعة أشهر يسيحون في الأرض
أى أرض الجزيرة وأبطل ما كان قبل ذلك من الاحكام بالنسبة لهم
ذلك ماجاء في القرآن الكريم فلننقل بكم الى ماورد في السنة في هذا الباب فنقول
ان الاحاديث التي وردت في هذا الباب كثيرة وجلها من الآثار المروية عن عمر
أمير المؤمنين وعلى بن أبي طالب وابن عباس رضى الله عنهم أما ما عزي الى الرسول
عليه السلام في ذلك وصح سنده فقليل جداً ومنه أن قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم
بقتل المرتدين المحاربين

روى في ذلك البخارى حديث النفر من عكل إذ قدموا على الرسول عليه
السلام فأسلموا فاجتووا المدينة فأمرهم أن يأتوا لابل الصدقة فيشربوا من أبوالها
وألبانها ففعلوا فصحوا فارتدوا وقتلوا رعائهم واشتاقوا الابل فبعث في آثارهم فأتى بهم
فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم لم يحسمهم حتى ماتوا
وورد هذا الحديث لغير البخارى مع بعض تغيير زهيد

ولا مرأ أن ذلك الحديث صحيح السند والمثني ولكن ذلك النفر من عكل
فضلا عن ردتهم كانوا من أولئك الخائنين المحاربين الذين يسمون في الأرض فساداً
المنطبق عليهم آية « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً
أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض »
فلم يكن منشأ ما فعل الرسول (ص) لهم طرود شبيهة لهم أو هنت فيهم عقيدة الاسلام
أو حجة أرثهم صحة ما كانوا عليه من عبادة الاوثان ولكن لما رأينا من ارتدادهم
الى محاربة المسلمين وايدائهم ومحاولة اللحاق بأقوامهم لمناصرتهم ومؤازرتهم فهم
خائنون ومحاربون وساعون بالفساد في الارض . تنطق بذلك كله عبارات الحديث
المروى آنفاً عن البخارى في شأنهم

أما غير المحاربين من المرتدين فللعلماء كلام طويل في جزأهم فالجمهور من الفقهاء
يقولون بقتل المرتد والمرتدة عملاً بعموم حديث (من بدل دينه فاقتلوه) . وخصه
الحنفية بالذكور ونسكوا بنهى الرسول عن قتل الأنث . وأما جميع ماورد من
الاحاديث في قتل الرسول لبعض النساء المرتدات فأسانيدها ضعيفة بل لقد قال

ابن الطلاع في الأحكام (١) أنه لم ينقل عن الرسول عليه السلام أنه قتل مرتدة .
وجهور الفقهاء وأن قولوا بقتل المرتد اختلفوا في أمر استنابته قبل القتل فمنهم
من أوجب أن يستناب أولاً فإن لم يتب قتل وذهب الحسن وطاوس وأهل الظاهر
وكثير غيرهم إلى القتل في الحال . قال الشوكاني في نيل الأوطار وعليه يدل تصرف
البخاري فإنه استظهر بالآيات التي لا ذكر فيها للاستنابة والتي فيها أن التوبة لا تنفع
وبعموم قوله (من بدل دينه فاقتلوه) ويرى النخعي أن المرتد يستناب أولاً (أي
فلا يقتل)

تلك أقوالهم في هذا الباب ولهم تفصيلات كثيرة لاحاجة إلى استيعابها والذي
نراه في ذلك قد يخالف ما قالوه من وجوه ولكن لا حرج علينا فيما نرجو مادام عمدتنا في
ذلك كتاب الله الكريم وسيرة الرسول عليه السلام .

وخلاصة رأينا في ذلك أن القرآن الكريم لم ينص في آية ما على قتل المرتدين عن
دين الإسلام إلى دين آخر على النحو الذي شرحناه في تفسير آيتي الارتداد السابقتي
الذكر . وأما الآيات التي سردها البخاري (٢) واستدل بها على وجوب قتل المرتد
فوراً فليس شيء منها فيما نرى جاء نصاً في القول بالقتل ولا في بيان حدود الردة
وكونها والتعريف بها ولقد نستوفى الكلام فيها بعد بما لا غبار عليه بيد أنه يجمل
بالباحث أن يتدبر المقدمات الآتية قبل استنباط حكم قاطع في هذا الباب

أولاً - أن القرآن ليس فيه نص قاطع على أن المرتد بالمعنى الذي يريد
الفقهاء يقتل

ثانياً - أن لبده ظهور الإسلام من الأحكام ما ليس لغيره . ذلك أن المرتدين
عن الإسلام يوم بدأ رسولنا الأكرم الدعوة إلى التوحيد كانوا يعوّدون إلى ما كانوا
عليه من اليهودية أو النصرانية أو الوثنية وكانوا إذ ذاك لا جرم يلحقون بأقوامهم
ويحاربون المسلمين في صفوفهم أو يظهرونهم على عورتهم فارتداد من كانوا يرتدون

(١) فتح الباري - جزء ٢١ صفحة ٦٣٦

(٢) الجزء الثاني عشر من الباري صفحة ٢٣٦

اذ ذاك عن الاسلام لم يكن لمجرد الخروج عن هذا الدين ولكن كان دائماً مشفوعاً بمظاهرة من يلحقون بهم من أقوامهم .

والمستقرىء لأحاديث الباب لا يكاد يجدها تخرج عما قلنا فمعاملة رسولنا الأكرم وخلفائه من بعده للمرتدين تلك المعاملة كانت فيما نرى لانهم ينقلبون خائنين محاربين لله ورسوله والمسلمين . وأننا نرى اليوم أن الفار من الحرب أو الملتحق بجيوش العدو المحارب لحكومته يعتبر خائناً ويقتل من فوره ولو لم يرتد عن دينه فما بالناس لاندرك سر قتل الرسول وخلفائه للمرتدين عن الاسلام الذين أن لم يقتلوا اشتدت بهم الفتنة وظاهروا قومهم على المسلمين وكشفوا لهم عن عورات هؤلاء ودلوهم على مواطن الوهن فيهم .

ولقد كان منهم طائفة يؤمنون بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ويكفرون آخره لعلمهم يرجعون . فالمرتدون في صدر الاسلام كانوا في الغالب ممن دخلوا في الاسلام نفاقاً وخرجوا منه للفتنة وكشف الاسرار .

ثالثاً - أن الردة التي جاءت في آيات البقرة والمائدة وغيرها كانت كما علمنا ارتداداً عن نصرته المسلمين والاشترائك معهم في محاربة أهل الكتاب لما كانوا يخشونه من ظهور هؤلاء على المسلمين وظفرهم بهم يوماً ما فارادوا بذلك أن يتخذوا عندهم من الايادي ما يحقنون به دماؤهم ويمصمون ارواحهم .

رابعاً - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا كيف نتصرف في الحوادث ونقف عند حدود مقتضيات الاحوال . ولنا من سيرته السامية وأعماله الحكيمة آلاف من الأدلة والآيات ولكننا ابتلينا بالجود وضمفنا عن ادراك أسرار سيرته ودينه الفطري ووقفنا عند حدود الالفاظ وأخذنا تنقيده ببعض الروايات . ولقد كان لنا من حكمة رسولنا الحكيم وعلمه الالهي ما يرشدنا الى أيسر السبل وأقومها لو كنا نعقل . ولنضرب لك أيها المتدبر المفكر في ذلك بعض الآيات والشواهد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الاسلام وهم على ما تعلم من الجهالة والضلال والشرك المبين فكان عليه الصلاة والسلام يتدرج بالاقوام رويداً رويداً كما كان يلين لهم من جانبيه ويتساهل في مطالبهم تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم الى التوحيد . ومن

ذلك ما روى عن نصر بن عاصم الليثي عن رجل منهم أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم على أن يصلي صلاتين (لاخمساً) فقبل منه . رواه الامام احمد (١) وفي لفظ آخر له على الا يصلي الا صلاة فقبل . وعن وهب قال سألت جابراً عن شأن تقيف اذ بايعت فقال اشترطت على النبي الا صدقة عليها ولا جهاد وانه سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول بعد ذلك سينصدقون ويجاهدون . رواه ابو داود

وعن أنس أن رسول الله قال لرجل اسلم . قال أجدني كارها . قال اسلم وان كنت كارها . رواه احمد . قال الشوكاني بعد أن سرد هذه الاحاديث فيها دليل على أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الاسلام منه وان شرط شرطاً باطلا وانه يصح اسلام من كان كافراً

فعل ذلك الرسول الحكيم لما يعلمه من أن من المنفرات تكليف المدعو جميع احكام الله في آن واحد وانه لا حرج أن يشترط المدعو ما شاء من الشروط ولو باطله فان دخوله في الاسلام على اى وجه جدير أن يوجد في نفسه من الميل للاسلام والمعطف على اخوانه المسلمين ما يدفعه لاجرم الى بذل ماضن به ونقض ما قدم في بيعته من الشروط . ينبيء بذلك قوله صلى الله عليه وسلم في حديث جابر المذكور آتفاً « سينصدقون ويجاهدون »

فانظر كيف فعل ذلك الرسول الحكيم فراعى مقتضيات الأحوال وأتى بما هو الاصلح للاسلام والمسلمين

وناهيك بما فعله في صلح الحديبية من قبوله شرائط قريش الاربع ورضاه أن يرد الى المشركين من يجيئه منهم مسلماً على ألا يردوا هم من فر اليهم من المسلمين . فعل ذلك رسول الله لما فيه من الاسرار والحكم البالغة مما لم يفقهه الذين شهدوا ذلك الصلح من الصحابة الا بعد أمد غير قصير

لقد كان الاسلام يوم بدا غريباً ضعيفاً فكان لا بد من اتخاذ كل ما يمكن من ضروب التعويضات والشدة حتى يشتد ويقوى ويسلم مما كان يراد به من الفتنة والأذى

ولقد اقتضت حكمة الحكيم العليم أن يقيم الرسول الكريم عليه السلام في ذلك من الأحكام ما يضمن سلامة الإسلام فلما أيد الله دينه ورفع منار كلمته كان لا بد أن تكون هناك أحكام أخرى تناسب ما صار إليه المسلمون من القوة والمنعة وما أصبح فيه الإسلام من السلامة والأمان . من ذلك ما رواه البخاري بسنده (١) عن ابن عمر أن رجلا جاءه فقال يا أبا عبد الله لا تصنع ما ذكر الله في كتابه « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما (الآية) فما يمنعك الا تقاتل كما ذكر الله في كتابه فقال يا ابن أخي ! اعتبر بهذه الآية ولا اقاتل احب الى من ان أعير بأية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) قال فان الله يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله اذ كان الإسلام ضعيفا وكان الرجل يفتن في دينه اما أن يقتلوه واما أن يوتقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة

فانظر كيف كان عبد الله يفسر الفتنة ويفرق في الأحكام بين عهد الإسلام بالقلة والضعف وما صار إليه امهده من العزة والمنعة . ولعل ما ذكرناه هنا هو سر قول الامام النخعي بان المرتد يستتاب ابدا ولا يقتل . ذلك ان الإسلام على عهده ما كان لتضره ردة المرتدين بعد اذ أصبح في مأمن من أن تؤذبه مكاييد المشركين ومن يرتدون اليهم من منافقي المسلمين .

ولو كان حديث (من بدل دينه فاقتلوه) الذي رواه البخاري وغيره من أمه الحديث عامة على نصيحتته غير مختص بزمان ولا موقود بمقتضيات غير مطردة ما وسع النخعي ولا غيره مخالفته .

واذ مهدنا امامك السبيل بتلك المقدمات التي أسلفنا فاعلم أن الذي نراه أن المرتد اما أن يرتد عن دينه فلا ينضم الى المدافعين عنه من المسلمين ولا يقف منهم موقف المسالم غير الخائن كما كان يفعل أولئك الذين نزلت فيهم آيات البقرة والمائدة فهذا لا جرم يقتل . وأصرح ما نزل في ذلك قوله تعالى (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم . كلما ردوا الى الفتنة أركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم

(١) تفسير ابن كثير جزء ٤ صفحة ٣١٦

السلام ويكفوا أيديهم نخدوهم واقتلوهم حيث تقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا)

ومثل هذا القسم من يرتدون ويحاربون كما سبق في حديث النفر من عكل . ولا ريب ان المرتد في هذين القسمين منافق خائن أو محارب فلا بد أن يقتل من فوره .

وكذلك تفعل الممالك جميعها في الوقت الحاضر مع امثال هؤلاء من افراد شعوبهم ورعاياهم .

ويلحق بهذا النوع الزنادقة الذين كانوا على عهد علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقد روى من طريق عبد الله بن شريك العامري عن ابيه قوله لعلي ان هنا قوما على باب المسجد يدعون انك ربهم فدعاهم فقال لهم ويلكم ما تقولون ؟ قالوا أنت ربنا وخالقنا ورازقنا . فقال ويلكم انما انا عبد مثلكم . أكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون . ان أطمت الله اثابني ان شاء وان عصيته خشيت أن يعذبنى . فاتقوا الله وارجعوا فأبوا فلما كان الغد غدوا عليه فجاء قنبر فقال قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام . فقال أدخلهم . فقالوا كذلك فلما كان الثالث قال ابن قلم ذلك لاقتلنكم بأخبث قتلة فأبوا الا ذلك فقال يا قنبر اعطني بفعلة معهم مروهم فخذ لهم أخذودا بين باب المسجد والقصر وقال احفروا وابعدوا في الارض وجاء بالخطب فطرحة بالنار في الاخذود وقال اني طارحك فيها او ترجعوا فأبوا أن يرجعوا فقتلهم فيها .

وكان يقال لهذه الطائفة سبئية نسبة الى كبيرهم عبد الله بن سبأ كان أظهر الاسلام وابتدع هذه المقالة . وانما الحقنا هؤلاء الزنادقة بالقسمين قبلهم لانهم ظهروا والاسلام غض حديث العهد بالوجود كثير الاعداء والمخار بين فلو أن علي بن ابي طالب ابن عم الرسول وختنه وأصل العترة النبوية أبقى عليهم أو خفف العقوبة عنهم لانتمحت آيات التوحيد عن ظهر الارض ولما وجد في العالم أحد من المسلمين ولما كان للناس من علي بن ابي طالب ما كان لليهود من عزير . أما امثال هذه الفرق اليوم وقد اشتد ساعد الاسلام وقويت شوكته وتبينت الناس حقائقه واصوله فلا خوف عليه منهم ولو كثرت جموعهم وعظم سلطانهم اللهم الا اذا أخذوا يفتنون المسلمين عن دينهم بالقتل

أو السجن أو التنكيل فهناك بحق على المسلمين مناقضتهم وتقجيلهم أينما تقفونهم .
وأما الذين لم يرتدوا عن تأييد الاسلام ولم يخرجوا عليه ولم ينضموا الى صفوف
أعدائه ولم يخونوه في شيء ولكن أضلّتهم بعض الشبهات التي لم يستطيعوا لها ردا
والشكوك التي لم يقووا على مدافعتها بالحجة والبرهان فان سبيلهم فيما نرى الا يعتبروا
كل مرتدين ما داموا لم يهتدوا الى الصواب ولم يقيم من أهل الذكر والعلم من يبين
لهم فيها الرشد من الفتن

والله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس في طاقتهم أو أن
يلزمهم الايمان بما لم يهدم وجه الصواب فيه . يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى
(لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) فان الرسل قد بعثهم الله لخليقته
وكلفهم البلاغ المبين . اذاً فلا تكليف الا حيث البلاغ المبين . فاذا ابتلى العامة بأمثال
بعض علماء هذا العصر الجامدين وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور النابتين
من المسلمين فكيف يؤخذون إذا ضلت أحلامهم بعداذ فقدوا أركان الاسلام
وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن يدروا الشبهات ويهدوا الهائمين في أودية
الضلالات

أقول ذلك بعد إذ رأيت من الشبان المسلمين من كانوا يطرقون أبواب شيوخ
العلماء ويفشون بحالهم أئمة الاسلام لا لغرض سوى استفنائهم في بعض أصول
الاسلام والفرار الى معاقل علمهم وهدايتهم بتقون بها هجمات جيوش الشكوك والاهام
حتى اذا استفتحوا عليهم بكلمة واحدة في ذلك السبيل سمعوا من فحشهم وسبهم
وتقريعهم ما كان يصدر أولئك الحائرين عن مجالسهم وقد تنازعتهم ضلالات الخيرة
ودفعتهم معاملة الشيوخ الى اليأس من بلوغ غايتهم وصلاح عقيدتهم

ونحن على ثقة انه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية وعرفوا أسرار سنة
الله في خليقته لما كثرت الملاحدة وفشت المناكير . فكيف لنا مع جمود المتصدين
للفتيا والارشاد . وكيف لنا أن نؤخذ النشء الصغار وغيرهم ممن لم يستوعبوا أصول
الدين ولم يهتدوا الى صواب اليقين وهم عاجزون عن مدافعة ما لا قبل لهم به من
غارات الشكوك والشبهات

بلى لقد تعرض لنفس المسلم شبهة لا يستطيع دفعها على حين لم يقصر في التنقيب
عن وجه الصواب والحق فيها فهل هناك دين غير الاسلام بحكم بنجاة هذه النفس
الخائرة ويقول ما قال القرآن « لا يكاف الله نفسا الا وسمها » « لا يكلف الله
نفسا الا ما آتاها » « لا إكراه في الدين » ؟ أفلم يعتبر القرآن التفكر في ملكوت
الله من كبريات العبادات يزاد بها إلى الله؟ أو لم يقل رسوله صلى الله عليه وسلم « تفكر
ساعة خير من قيام ليلة » إلى نحو ذلك مما علم المسلمين أن من أعظم العبادات قراءة
كل ما يبين الانسان على معرفة حكم الله في خلقاته وإدراك البدائع من صنعته
ككتب الطب والتشريح وعلم الحياة وعلم وظائف الاعضاء وعلم النفس وأشباهها؟
أليس ذلك يخول المسلم متى أحسن النية أن تكون أكثر أيام تحصيله للعلم وإعماله
للتفكر عبادة لله تعالى وتعرفا إليه بما يفهم من بدائع آثاره وما يدرك من دقائق صنعته؟ إذا
فالا انسان في نظر القرآن كلما ازداد علما وبجحا ازداد من حظيرة الله تعالى اقترابا
وحظا .

المحاضرة الرابعة

مقام القرآن الحكيم

آراء العلوم والمعارف السكونية

ساداتي : كثيراً ما نسمع من خطبائنا المعصرين ونقرأ في صحائفنا ومجلاتنا الحديثة ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين في حرب قاعة دائمة لا يستقر لها صلح ولا تتخللها مهادة

يلهج بذلك أشباه المحصلين وتلاميذ آثار الغربيين ممن يطبرون لكل هيمنة ويفتنون بكل بدعة ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير

ليت شعري أفما كان الاجدر بمن منحوا فطرة الانسان ، ورفعوا عن مراتب المعجم من الحيوان أن يتساموا بمقولهم ويتحاكموا الى بصائرهم فيما يعرض لهم من النظريات ؟ بلى ولكنهم أبوا الا أن يجمدوا على الثقة بالمباحث والاقوال الغربية دون سبر لاغوارها ولا تفكر في مبلغها من الصدق ، وما يتبع أكثرهم في ذلك الا الظن وما نهوى الأنفس . وليت هؤلاء ، يكتبون بخزي الجود أمام الحديث فيقفوا أزاهه سلبين صامتين لا يبدوون حراكا ولا ينتحلون فهماً بل نراهم على ضلالهم الكثيف وجهلهم الفاحش يملأون الفضاء بالدعاوى الجوفاء ويدعون لأنفسهم علوم الارض والسماء ثم لا ينفكون يقذفون مع ذلك بروجوم نهكهم وسخريتهم قديم المأثورات ويفضون أبصارهم حتى عن آياتها اليينات

جهل ذلك الرهط من المنفيين تاريخ الامم الغربية ومصدر تقلباتهم وتطوراتهم التي تماقبت فيهم ، جهلوا ما انبعثت عنه أحكامهم وأقوالهم في مختلف المواقف الدينية والسياسية والاجتماعية ؛ جهلوا جميع ذلك كما جهلوا الباب من أمر دينهم وبيض الصحائف من تاريخ أسلافهم ، وليتهم مع ذلك الجهل المؤكد أنصفوا

الطامعتين فسوّوا بينهما حباً أو كرهاً وانتظموهما في سلك واحد من المعاملة الحرة
البريئة من شوائب التحيز ولكننا نجدهم إذا عرض لهم شيء ليس بغيري لوّارؤوسهم
وتنوّوا أعطافهم وقلّوا في عنجهية شوهاه ونمرة حقاء « لا حاجة لنا بما لم يصدر عن
أوروبا ، ولا نولى تقننا من لم يرد مناهلها ولم يتخرج على أساتذتها »

وانه لحسب أحدهم إذا ما شئت اقناعه أن تقول له « بذلك يقول المسنر فلان
الانجليزي ، أو المسيو فلان الفرنسي ، أو الهر فلان الالماني » . فليكنفيناك هذا
وحده مشقة التدليل وتوفير البراهين وليسلسلن لك مجرد ذلك ما شئت من
أعنة كل عصى شمس

ولو أن أسارى التقليد ممن تصدروا لزعامه الحركة الفكرية والنهضة العلمية كانوا
طلقاء العقول أحرار التفكير لما ابتاعوا من محصول العقول الغربية الا ما أمنوا غشه
واستوثقوا من نقاء معدنه وكال صلاحه بعد إذ عرضوه على محك الاختبار وناقشوا
أصحابه دقيق الحساب وميزوا ما فيه من النافع والضار ، ذلك كيلا يقبلوا قولاً
ولا يرفضوا رأياً الا وأفتدنتهم مطمئنة وأقدامهم ثابتة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى
من حي عن بينة . ولكنها فيما نرى نوبات عصبية وغضببات جاهلية ملكت أعنة قلوبهم
ولمبت بموازين أفهامهم فأطلقت ألسنتهم بالاراجيف وسولت لهم كل رأى سخيف

زعموا فيما روينا لكم آنفاً معاداة الدين للعلم وانه لا يجوز أن يقف الدين في سبيل
الرقى العلمى مهدد به بأنه اذا لم يتنح عن سبيله فسكون الهزيمة المنكرة مصيره المؤكد
كدلكم يقولون ايضاً فيما يرجفون انه لا بد من فصل الدولة عن الدين وان حرية
الفكر الانسانى تستلزم انقلابه ما دياً طليقاً لا بتقييد بشيء من قيود الاديان
هذه هي الدعائم التى يقيم عليها أولئك الحائرون والاباحيون فى هذه البلاد
وأشباهاها صروح نهضتهم ومعاقل دهورتهم

ولقد بينا فى كثير من (محاضراتنا) مبلغ ضلال احلامهم فى تلك المقالات
وخيبة ما بيتوا من السكيد السىء لاهل القرآن ، كما أوضحنا فى اكثر مقاماتنا انه
لو كان لذلك الجيش المفتون من الزاربن والمستخفين والطاعنين ، لو كان لهم علم

باصول القرآن ووقوف على ما مكن للعقل والوجدان والقول من قواعد الحرية
الصادقة في سائر شعب الحياة لما زلت لهم قدم في مزلق التقليد ولتقهوا جلال ذلك
الكتاب الذي يقول « لا تقف ما ليس لك به علم » والذي يقول « فاسألوا اهل
الذكر ان كنتم لا تعلمون »

ساداتي الاكرمين : سيقنادنا التمرض لتحليل هذه القالات ومناقشتها
والرجوع بها الى الاسباب التي انبعثت عنها لدى الامم الغربية والعلل التي بررت
رواجها فيهم وبقاها بينهم ، سيقنادنا تفصيل ذلك كله الى الخروج بعيدا عن دائرة
موضوع (محاضراتنا) الحاضرة فكان لزاما ان نقصر القول هنا على ما سيكشفكم
أولئك المستهزئين وما سببريكم ان أولئك الادعياء ما كانوا فيما فعلوا الا كالشعراء
يتبعهم الغاوون ألم تروا انهم في كل واد يهيمون وانهم عن العلم الصحيح محرومون



معلوم أيها السادة ان الحكمة في ظهور الانبياء والرسول (ص) انما هو دعوة
امهم الضالة الى اصلاح ما فسد من أمرها ومعالجة ما مرض من أخلاقها وكبح ما جمح
من أهوائها وشهواتها .

ولقد جاء اكثر الانبياء والمرسلين برسالات خاصة ، كما جاء بعضهم لمعالجة
أمراض معينة في أقوامهم ، جلها فيما يهدتنا القصص اجتماعي وخلقى ولم يكن في
موسوعات رسالات اكثرهم البحث في العلوم الكونية والظواهر الطبيعية ، بل ولا
النظم والقوانين المدنية .

وإذا كانت رسالات اكثر الانبياء انقطعت بانقطاعهم ودرست معالمها بفنائهم
حتى لم يبق سبيل الى ضبط ما جاء منها ضبط احصاء واستيعاب فان لنا أن استأنس
بتاريخ رسالة سيدنا عيسى ابن مريم (ص) فانها مرآة غيرها من سائر الرسالات
التي سبقتها .

ظهر المسيح (ص) في جزء من المملكت الرومانية ذات القوانين المدنية
والدساتير السياسية ، بيد أنه ظهر في أمة اليهود بعد إذ انصرفوا الى عبادة

أخبارهم وتقطعت فيهم أوامر الأرحام وتفسخت الأخلاق عن النفوس وتفتت
المنكرات واعوز الناس الرحمة والحنان حتى لم يكذب يبق لهم في الحياة من مطلب
سوى الملاذ البهيمية والمآرب الشهوية .

لقد كانت أمة المسيح من اليهود على تلك الحالة يوم جاءهم بالتنفير من زخرف
الدنيا وتزهدهم في باطل متاعها وعند ما ضرب لهم الامثال والقصص ليقوم الحرب
على الشهوات والماديات التي كانت مالكة لأعنة قلوبهم ومضلة لعقولهم ونفوسهم
وقد كان من تعاليم أولئك الأنبياء والمرسلين ومن حذا حذوهم من المصلحين
ما جاء عقوبة لأمتهم المتفحشة زجراً لهم عن رجس الشهوات التي عكفوا على
مرضاها وأسلموا مقاليدهم لها حتى أنسهم أنفسهم وهبطت بهم الى مراتب سائر
الحيوان الاعجم . فللعقوبة والتنكيل كان ما جاءوا به من الخوض على الرهبانية
والترغيب في الخصاء والحث على افناء القوى العقلية والبدنية بالصوم المرهق
والتعذيب بالتحرج عن أكثر مطالب الحياة . وما كانت أمثال هذه التعاليم في سبيل
المصلحة العامة العمرانية ولا مقصودة لغبر من نزات فيهم من أضرار الناس وعبدية
الشهوات والا فهي منقصة للنسل ، مذهباً للعمران ، سبيل الى الخراب والزوال . ولذلك
يمكن القول بأن رسالات السيد المسيح وأكثر من تقدمه من الأنبياء والرسل
الكرام عليهم الصلاة والسلام كانت في جوهرها قاصرة على قسم الجهاد النفسى والتربية
الخلقية كما انها جاءت لطوائف من أقوامهم بعقوبات وزواجر بلغت في شدتها
وقداحتها مثل الذى بلغه هؤلاء من الفساد والفجور .

ومع ذلك لم يكذب المسيح وكثير غيره يأتون الناس في الاخلاق بدساتير تبين
الخير من الشر وتوضح للناس ما يفعلون وما لا يفعلون ، بل لم يكادوا يأتون بشيء
كبير في باب العقائد الالهية . أفلا نذكر كيف استأثر رجال الدين بعد السيد المسيح
بالامر وكيف اختصوا أنفسهم بتقرير العقائد وموسوعات الوجدان الانسانى وكيف
وضعوا (طقوس) العبادات وحرموا على الناس حق تفسير كتب المهديين كما
حرموا عليهم معارضة ما تأمر به الكنيسة ولو كان من غير المعقولات الى أشباه

ذلك مما ضجت الأمم النصرانية من هولاء وثاروا للمخلص منه نوراتها الدموية التاريخية .
سياسية كانت أو دينية . لم تر فيها سجل لنا تاريخ الأديان السماوية ديناً تجاوز تلك
الحدود التي وصفنا فتناول شيئاً من الشرائع المدنية أو علماً بالشئون الكونية سوى
دين موسى ومحمد (ص) وذلك وان يكن فيما يخيل لنا خروجاً عن الحدود العادية
لرسالات السماوية الا أنه لمن تدبره لم ينزل به الروح الأمين عبثاً ولم يرسله الحكيم
العليم اعتباطاً ولا فضولاً . ولكن كان فيمن بعث اليهم هذان الرسولان الكريمان
من الشئون والأطوار ما اقتضى ان يمدّا من قبل القوى العزيز بما لا بد منه في مصارعة
أفكارهم الضالة وهداية عقولهم الهائمة واصلاح شئونهم التعاملية الفاسدة .

كان بنو اسرائيل بمصر متأثرين بالتقاليد والعقائد والعلوم والعبادات المصرية
فكانوا يعبدون الأوثان والصور ، ويعلمون من العلوم الكونية ما كان معروفين للناس
في هذه الديار فلما خرجوا الى سيناء ولم يكفهم تأديباً ولا عقاباً ملاقوه في التيه من صنوف
العذاب والشدة جاءهم موسى بعد مناجاة الطور بالالواح بدعوهم فيها الى توحيد الله والنهي
عن عبادة غيره ويحرم عليهم أن يشركوا به شيئاً . ولقد كان لا بد أن يأتيهم بشيء من
العلوم الكونية لما كان لهم من الاملم بها والوقوف على تسف من غناها وسمينها
وفاسدها وصحیحها فاذا جاءهم بسفر التكوين فانما ذلك لتبديد ما تراحم في صدورهم
من الضلالات والخرافات المصرية والسكريدية التي أبعدهم عن العلم بقيوم الأرض
والسماوات وسوت لهم عبادة الصور والأوثان وما في الفضاء من الثوابت والسيارات .
واذا جاءهم موسى مع هذا بشيء من الشرائع والاحكام التعاملية فانما جاءهم بما كان
ضروريا لهم في تدبير وسياسة أرض كنعان التي كتب الله لهم . ولو ان موسى عليه
السلام عاش حتى ظهر قومه على السكنعانيين واندمج في نطاق ملكهم ماشمله بعد
موته حكم يوشع وداود وسليمان لكان في توراته اليوم من الاحكام التعاملية والتعاليم
السياسية الشيء الكثير

وهل كان في استطاعة موسى لولا ما أمده الله به من ذلك العلم والشرع ان
يعيد أقوامه الهائمين في أودية الجهالة الى حظيرة القدس الربانية أو يشرق على نفوسهم

الضالة بالألوان الألهية؟ كذا جاءت رسالته موسى للبلاد، أما محمد عبد الله ورسوله الى الناس كافة فان لرسالته التي دامت نيفاً وعشرين عاماً ولدعوته التي سبقت ما بقي الانسان في الأرض من الشئون والخصائص والمقاصد مالا يشا كلها فيه دين ولا تشبهها شريعة .

لا نعرض هنا لما جاء به القرآن الحكيم من الشرائع الاجتماعية والاحكام التعاملية فان هذا ليس موضوع محاضرة اليوم على اننا استوعبنا الكلام فيه وفصلناه تفصيلاً في محاضرتنا المعنونة « لماذا ظهر الاسلام في مكة »

فأما بحثنا في هذا المقام فانه خاص بموقف القرآن أزاء المسائل الكونية والعلوم العقلية . ولا نغني بهذا انه جاءنا في هذه المقاصد بما تجيئنا الكتب الفنية تبويبا وتفصيلاً أو تدليلاً وتعليلاً . فان هذا كما هو معلوم ما كان يوماً ما من المقاصد الأولى للكتب الالهية ولا من أغراض الرسائل السماوية وانما يعيننا ان نبين فيما يلي مدى ما بين القرآن الكريم والعلوم الكونية من الصلات وهل وقف كتاب الاسلام يوماً ما في سبيل رقي العلم وحرية الفكر كما يتشدد الخراصون ! أم انه على العكس من ذلك كان محرر العقول الأسيرة ومنير البصائر المظلمة ومثبت الافكار القلقة ومنعش الهمم الخاملة ومحرك الافهام الجامدة ! ! كذلك يعيننا ان نصف مقامه في هذه الأغراض وأن نأني على بيان بعض آياته التي لم يفسرها الا الزمان ولم يكشف دقائقها سوى ما أحدثته الحركة العقلية الجريئة التي انهزمت أمامها ظلمات التقليد؛ خفي بها عن الابصار ما كان يمد لدى القدماء علوماً صحيحة ونظريات ثابتة وما كان أكثرها سوى ظنيات اخترعها الخيال والتخمين أو أساطير خرافية توارثها الاخلاف عن آباؤهم الأولين

جاء القرآن بما جاءت له سائر الرسائل السماوية قبلاً من التعريف بالخالق وتقرير العقائد وامهات الشرائع وأساس الأدب والاخلاق ، جاء بجميع ذلك قصداً الى هداية العالم الانساني وارشاده الى ما يضمن له السعادة والنعم في حياته . إلا ان القرآن حينما جاء كان الناس في جميع الارض كما هو معلوم للمؤرخين نهياً مقسماً بين رجال الدين وبين المتغلبين المسيطرين من الاشراف والفوارس فأما رجال الدين فقد استرقوا من الشعوب والافراد ضمايرهم وعقولهم فما كان لاحد من أقوامهم في تلك

المصور المظلمة أن يمضي في شأن له إلا كما يفعل الاسير العاني عطائه السلاسل وأثقلته
الاغلال وأرهقه النصب وأنمكنته الاوصاب

كذلك كان شأن الناس في تلك القرون الوسطى يوم هبط وحى الله في مكة
بالقرآن . فاذا جاء القرآن لما سردنا من المقاصد التي نزلت بها الرسالات السماوية
الآخري فلقد جاء كذلك لتحرير العقول البشرية من رق التقليد واخراج الوجدان
الانساني من نطاق الحجر الذي ضربه من حوله رجال الدين ، جاء لانهاض العقل
الآدمي واستحثائه في سبيل التفكير والنظر . جاء يخفر النفس البشرية ويسوقها
لتقرأ صحف الطبيعة وتندبر آيات صنعها البديعة . بغض القرآن الى الانسان كما اسلفنا
رذيلة التقليد ونمى عليه الجود على ما ورثه آباؤه الأولون أو شاءه الأخبار والربانيون
حتى لقد سمي القرآن هؤلاء أرباباً لمقلديهم في آية « اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً
من دون الله »

ولكم عبر القرآن الغافلين من معطلي العيون عن الأبصار والآذان عن حسن
الاستماع والأفتدة عن الفهم والتدبر بأنهم كالانعام بل هم أضل

جاء القرآن والناس في الارض أمي لا يعلم الكتاب الا ظنوننا وأمانى أو مقلد
ملكته فؤاده تعاليم الاحبار والرهابين وأساطير الآباء الاولين أو أباحي لا قيدي
استرقتة الشهوات والاهواء فهو عدو لكل وازع وخصم لكل مصلح ، أو دهرى
يقول أن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر . ثم قام بجانب هؤلاء
أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر في أن تستنير البصائر وتتححر العقول وأن يعرف الناس
أن الناس عباد الله ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، وأن يعملوا أنه لا تغنى نفس عن
نفس شيئاً وان الله أقرب إلى الانسان من حبل الوريد ، يقبل التوبة عن عباده ويعفو
عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

جاء القرآن والناس في كل أرض كما وصفت لكم فكان لا بد له من الحيلولة
بين أفعال المسيطرين المفترسين من أشباه الناس وبين صرعى فرائسهم المسكينه
تلك التي تزعجهم يقظتها ويهو لهم امتعاشها ويهدم صروح مطامعهم فيها بعثها ونشورها

ولقد كان ما شاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين في الارض فإن البعثة المحمدية لم تختم إلا والناس كافة طلقاء عقلا وضميراً ، أحرار قولاً وفعلاً .

بهذا الجهاد المشكور للقرآن ورسول القرآن بدمى عهد البحث والنظر وولت دولة الجود فوطئت بذلك الاكناف للفلسفة الاغريقية ونحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت . فهي بأهل القرآن عاشت وفي أرض القرآن نمت وفي ظل القرآن عزت وسادت

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة هرقليتيوس وديمقريط والكساجوراس ما لقيته هي نفسها في بلاد الاغريق وهي مهد الفلسفة ومنبتها ؟ أم هل لقيت منهما فلسفة سقراط وافلاطون وأرسطو وارسترخوس وكليانتموس وبطليموس ما لقيته من الكنيسة الرومانية فلسفة هؤلاء الاساطين ثم فلسفة العرب بعدهم من الاضطهاد والمطاردة ؟ وهل اضطهد القرآن وأهل القرآن أمثال برونو وغاليليو وأمعنوا فيهم تنكيباً ونحريقاً لغير علة سوى أنهم بعد إذ اعتمدوا على الحس والمعانيضة وتسلحوا بالآلات المكبرة والمقربة استنكروا عتيق الخرافات وأعلنوا الدعوة الى المشهودات وأذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظننيات

ظهر القرآن أول ما ظهر في أمة أمية لم تألف المباحث العقلية ولم تعرف علوم الكون والمسائل الطبيعية فلما جاءهم بما ذكر لهم من أشاراتها أو صريح عباراتها — ولم تتسع لها مداركهم بعد — ذهبوا في أمرها مذهب التفويض والتسليم وأبوا أن يقفوا ما ليس لهم به علم فتقبلوها مؤمنين وتركوا أمر تأويلها وفهمها إلى أهل العلم آخذين بقوله تعالى « إن الظن لا يغني من الحق شيئاً » وقوله « وما أوتيتم من العلم الا قليلاً » وقوله « وفوق كل ذي علم علم عليم » إلى أشباه ذلك من الآيات التي علمتهم من الله ان العقل ليس بعربي ولا عجمي وان العلم ليس بشرقي ولا غربي .

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض فيما لم يعلموا حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين بعد إذ أعدها الاسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخايرها الفلسفية فنفجرت لأهل القرآن عيونها النضاخة وتقدمت لأيديهم قلوبها شبيهة دانية، فكان ما شاء الله أن يكون لعباده المؤمنين، سبق في كل

مضمار ، و نقابة خالصتهم في سائر شعب الحياة ، وقيادة عامة في ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة والأدب وفنون الجمال .

أجل اولكن بقايا الصدر الأول المسمى بالسلف قلقت نفوسهم يوم رأوا الفلسفة الاغريقية نجد سبيلها بين المؤمنين حتى رأى الكثير فيها خطراً على دين الاسلام وحربا على تعاليم القرآن كما خفت إذ ذاك أحلام طارت بها الأهواء والزعازع الفكرية إلى مسالك متشعبة من الشك والابتداع والاحاد حتى إذا ركبت تلك الأعاصير وثابت العقول إلى رشدتها وامتنحن الناس موقف القرآن لإزاءها سكنت النفوس القلقة واطمأنت الأفتدة المضطربة إذ وجدوا في آياته المحكمة ما كان جنة لهذا الدين ومناراً للمحصلين وحجة قائمة على الجامدين ورجوما لشياطين المرجفين من الجاحدين . ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلقائهم وهم القوامون على دين الاسلام الحامون لحماه يهتمون بأمر تلك العلوم وينرجون الى العربية ما كان موضوعاً منها باللغات الاخرى كما أخذوا يتدارسونها ويقربون من مجالسهم أساتذتها وفضائلها ولو كانوا من غير المؤمنين . ففي ظل القرآن وصادق دعوته الحارة الى الدرس والبحث والتفكير العميق تعانق العلم ودين الاسلام عدة قرون لم تتخللها بينهما وحشة ولم يعوزها صفاء ولا سلام . وما زال ذلك الأمر قائماً في البلاد الاسلامية حتى فسدت الملكة العربية وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وادراك تعاليمه ومقاصده بمستقل مداركهم وحر عقولهم . هنالك حيل بين العقول والعلوم وبالخاصة في بغداد فنصبت طائفة من الفقهاء أنفسهم للفتيا والتفسير حاجرين على المدارك ان تتحرك في ميادين المعقولات وعلى الابصار أن تنقلب في صحائف الارض والسماوات . وما زال شيوخ الدين باسم الدين هنالك يستأثرون بكل أمر والخلقاء والامراء الترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التي تفتت في أممهم ويستغلون العامة من شعوبهم استغلال بهم الانعام حتى عاد الاسلام غريباً كما بدا وانقلب الناس الى جاهليتهم الاولى . ولقد حذا المسلمون في هذه النوبة حذو المسيحيين في البلاد الغربية فأقاموا في بغداد ما أقامه الاوربيون في ممالكهم من محاكم التفتيش ووقدوا نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم في الرأي والاجتهاد ولو كان مرجعهم في ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم . فلقد أوصدوا أبواب

الاجتهاد أمام العقول وقطعوا للناس في العقائد والاحكام بأشياء وضعنها أيديهم ثم قالوا هذا من عند الله ليثبتوا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكذبون

احتكرت هذه الطائفة وبانخاصة في بغداد علم العقائد والشرائع وتأويل الكتاب والسنة كما احتكروا علم السنن الكونية والمباحث الطبيعية وتبعوا في استبدادهم بالعامه بل وبكثير من انخاصة سنن رجال الكنيسة شبراً بشبر وذراعاً بذراع فخرموا وحلوا وفسموا وكفروا وحذروا الناس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون فأقاموا بذلك لانفسهم سلطاناً على النفوس والسرار والعقول ، واتخذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلبين والامراء الجاهلين آلات يباغونهم بها ما ربههم السياسية ومطامعهم المادية. فلاغراض سياسية صبغت بألوان دينية كان اكثر ما شهدته بغداد من المصادمات والاضطهادات الدموية التي قامت باسم الدين وما هي من الدين في شيء ولكنها شهوات المتغلبين ومطامع الجبارين قضت بأن يعطل في بغداد القرآن ويطفأ بها نوره الساطع الذي جعلها في عدة قرون كعبة المحصلين ومنازة المستنيرين ومهاد توأمي العلم والدين

ولما جاء المغول بفاراتهم الساحقة الماحقة كتب الفوز والغلب للجهل، ونم النصر للسير على العقل، فهام الناس في أودية الضلال ورجعت العقول الى جاهليتها الاولى انقطاعاً عن التحصيل وتقيداً بالتقليد وأخذوا بالخرافات والاضاليل بهذه النظرة العامة التاريخية لموقف القرآن أزاء العلوم العقلية والكونية يقين لكم أن حياة تلك العلوم وذيوها في سائر البلاد التي شملها ظل القرآن كانا معقودين بمبلغ وقوف الناس على معاني هذا الكتاب ومدى ادراكهم لاسراره وأخذهم بتعاليمه. ولعلكم لاحظتم كيف ابتدأ تقلص ظلالها عن الربوع الاسلامية ومنى انطمت معالمها في الحواضر التي بها كانت زاهية زاهرة تضرب اليها آباط الابل من كل صوب، وتقصدها طلاب المدنية والعرفان من أطراف الارض . ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الامم وعقلياتها يمدى بعضها بعضاً لا سيما ما كان منها خبيثاً فالشعوب الاسلامية في الشرق عند ما غشت أبصارها ظلمات الجهالة فعل فيها رجال الدين

ما فعل في الغرب رجال الكنيسة بالمسيحيين، وكَم من مرة أحدثت أو تقاربت فيها
الاوراق التي كانت تقام فيها محاكم التفتيش في أواسط أوروبا والاضطهادات المذهبية في
بغداد وما حولها

وما لي لا أحدثكم بما فعل الكاثوليك بأمر شارل التاسع ملك فرنسا عام ١٥٧٢م
بالبروتستانت من المذابح التي أحصيت ضحاياها فبلغت مئتين ألفاً عدداً مقارنا ذلك
بالجناية الكبرى التي جناها السلطان السليم عام سنة ١٥١٣م في حدود المعجم يوم
أحصى الشيعة في تلك البقاع بطريقة سرية لم يشمر أحد بها حتى إذا عرفت مساكنهم
وأشخاصهم أمر السلطان فأبيدوا فجأة عن آخرهم وكانوا نحو أربعين ألفاً. ولم يكن
لذلك من سبب سوى القصد إلى إضاءة نفس عميد الشيعة الشاه اسماعيل ملك المعجم
واستفزازه للمحاربة طمعاً في ملكه وقصداً إلى إبادة دولته. فالسبب في هذا المثل
كما ترون سياسي بحث ظهر للناس في شكل ديني. ولهذا المبحث من الأحداث
والشواهد ما يخرجنا سرده عما قطعناه على أنفسنا هنا من الإيجاز والاجتزاء
بالمجالات والأمثال.

كذلك كان شأن القرآن إزاء العلوم وقد كان من موساعاتها العلوم العقلية من
الرياضيات والطبيعات وما وراء الطبيعة فهو الذي قام بالدعوة إليها والترغيب في
البحث عن دقائقها وأسرارها وهو الذي يبركته وجد بين المؤمنين آلاف من أمثال
الكندي ومحمد بن موسى الخوارزمي ويحيى بن أبي منصور والعباس بن سعيد الجوهري
وأحمد بن كثير الفرغاني وجعفر بن محمد البلخي ونصير الدين الطوسي وألوغ بك
ونابت بن قرة وعمر بن الخيام وابن سينا وأبي نصر الفارابي وابن رشد والحسن
ابن الهيثم وأشبه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والانتقال
والموسيقى وغيرها.

فلم يبق علينا إذن إلا البحث في موقف القرآن الكريم إزاء ما يسمى الآن
بالعلوم (Sciences) وهل في طبيعة دراستها بالأصليب الحديثة ما يجعل بينها وبين
القرآن وتعاليمه سداً لا يتماقتان معه وقتالاً لا يرجوان سلاماً بعده؟ أجل! بيد أنه لا بد لنا قبل
الدخول في تفاصيل ذلك البحث أن نعرف لكم معنى كلمة (العلم) المؤلف للعرف

الحاضر في الغرب وكذا في الشرق الذي يسير على أثر الغرب في كل شيء . فان لكل زمان اصطلاحه وعرفه واسكل عرف حدوده وحكمه . ولنعمد فيما تقدم لكم من ذلك على أقوال أساطين رجال الفلسفة الحديثة من أهل أوروبا فانهم محدثو هذه الفلسفة ومبتدعو اصطلاحاتها وواضعو تعاريفها فنقول : -

(١) يقول هو كسلي « العلم » فيما اعتقد ليس سوى الذوق الانساني بعد تربيته وتنظيمه . ويطلب هذا « العلم » حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة مثل المناظير المكبرة (Microscope) والمناظير المقربة (Telescope) وهل أقيمت اكتشافات كبلر ونيوتون الا على تلك القواعد الثابتة قواعد الشهود بهذه المناظير ؟
(٢) ويقول الاستاذ بلفور في خطبة له :

يتوقف « العلم » في تحصيله والتثبت منه على المقاييس فكل ما لا يقبل القياس من الاشياء فهو خارج أو يكاد يكون خارجا عن حدوده الطبيعية . ومعلوم ان الحياة والجمال والسرور ليست مما يقاس فهي اذا لا تكون من موضوعات « العلم »
(٣) ويقول الاستاذ ونديل « العلم » سواء استعان بالآلات أو لم يستعن عماده ما يلاحظه الانسان ويحسه من الكائنات وما تهديه اليه في المعامل الكيماوية والمعامل الطبيعية التجاريب والآلات التي تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعة من مكانها العميقة مع بلوغها من الدقة والضآلة ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائيين .

وإذا أردنا أن نبحث في باطن النظام الآلي للطبيعة أو في خارجه ، أو قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام وكيف كان وما مصيره ، أو حاولنا أن ندرك كنه هذا السكون ومبلغ شعورنا به، ولم نجد ولم خلقنا نحن هنا ، إذا أردنا ذلك فإن « العلم » الحديث ليس لديه جواب عن شيء منه إذ لا دخل لشيء من ذلك في الحدود المصطلح عليها للعلم وإذا كان لا علاقة « للعلم الحديث » بشيء من تلك المباحث ولا جواب لديه عن أمثال ما قدمنا من الاسئلة فليس بالطبع لاحد ممن يتكلمون باسم « العلم » أن يدعى أن « العلم » أقام البرهان على عدم وجود الله أو

إنه ليس هناك أرواح أو أن هنالك أو ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار الخ اه . مما اقتبسناه لكم هنا من أقوال أساطين التجديد الغربيين في تعريف كلمة « العلم » وتحديد مداها وموسوعاتها يتبين لحضراتكم أن من الجهل الفاضح واللفظ الطائش أن يتعرض باسم هذه الكلمة — ورقعتها من الضيق على مارأيتم — الى المباحث العقلية البحتة وبالنخاصة ما وراء الطبيعة منها فان « العلم » بالمعنى الذى وصفه وعرفه واضعوه كما سمعتم لا يعرض لشيء من هذه المباحث بنفى أو أثبات ولا يتناولها بامتحان ولا مناقشة وكيف وهو لا يصل الا الى المحسوسات ولا يعرف موضوعاً غير الماديات ولا منطقاً سوى المعامل والآلات

ولقد وقفت الكنيسة في بدء بناء « العلم » على تلك القواعد الجديدة وقفة المحارب العنيد أيام حكمت بالكنفر شعبية الآلهيات في جامعة توبنجن بألمانيا على الفيلسوف كبلر سنة ١٥٩٦ وأصدرت محكمة التفتيش قرارها المشهور الذى خلاصته : (١) ان النظرية القائلة بأن الشمس مركز الدنيا وانها لا تتحرك من مكانها هديان فلسفيا ونظاما. وانها كذلك هرطقة لأنها بلا ريب مناقضة للكتاب المقدس (٢) أن النظرية القائلة بأن الأرض ليست مركز الدنيا وانها غير قارة ولكنها متحركة ومتقلبة، هذه النظرية مساوية فلسفياً لسابقتها في هديانها وخطأها ومن الوجهة الدينية تعتبر على أقل فرض عقيدة خاطئة .

ولم تهبط سورة الحركة العدائية للعلم وأبحاثه الجديدة الا في نحو الثلث الأول من القرن السابع عشر بعد إذ أخذ رجال الدين يتبينون خطأهم في فهم عبارة « العلم » ويقفهون ألا علاقة لها بغير الماديات والآليات من الكائنات أصلاً فهنا نرى القسيسين الكاثوليكين بليالدو وغسبندى يتوليان علنا في الأعوام (١٦٣٩م — ١٦٤٥) الدفاع عن نظرية كوبرنيك فلا يصابان بأذى ولا ينهمان بهرطقة

بعد الذى قدمنا لحضراتكم في هذا المقام من البيان نود أن نقرر بكل تأكيد أن موقف القرآن الكريم تجاه « العلم » فى الاصطلاح الحديث هو عين موقفه أزاء « العلم » فى القرون الوسطى الى عهد التجديد الغربى فهو كما كان قبلاً لا يفتأ يدعو

العقل الى التفكير، والأبصار الى الاعتبار، والآذان الى الاستماع ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس الى التحسس من أسرار الكائنات وبحفزهم الى الكشف عن غوامضها والتنقيب عن دقائقها فهم يحكم تعاليمه الخالدة يفقهون انهم لم يؤثروا من العلم الا قليلا وأن الله يخلق ما لا يعلمون وأن الكائنات خلقت مما يعلمون ومما لا يعلمون وانه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة . كذلك يجد المؤمنون أنفسهم يحكم آياته الحكيمة منبهين عن التقليد في عقائدهم واتباع الظن في أحكامهم والميل مع الأهواء في تصرفاتهم .

على أنهم مع هذا كله يجهدون في كثير من آي القرآن ما يرشدكم الى مواطن التفكير والبحث ويعرفهم ما يتطلبون الوصول اليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه . واذا كان استقصاء ما جاء من ناحية النظريات الحديثة في القرآن الكريم وبيان القول فيه كما ينبغي مما لا يتسع له هذا المقام وجب أن نكتفي هنا بالآتيان على طوائف منها اجمالاً لا تفصيل له وإيجازاً نجتزئ به بالاشارة فيه . ففي هذه الحدود التي رسمنا لانفسنا تقبيل من الآيات الكريمة ماله علاقة وتناسب بأهميات تلك النظريات الفلسفية . وقبل أنجاز ما وعدناكم هنا نرى أن نجمل لكم ما سبق تفصيله من القول في هذه المحاضرة فأرعونا أسماعكم :

(١) ليست مهمة القرآن كسائر الكتب السماوية البحث في الشؤون الكونية والمسائل العلمية والفنية على النحو المألوف في الكتب الخاصة الموضوعية فيها .

(٢) لما جاء القرآن الكريم كان في جزيرة العرب من العقائد الفاسدة والعلم الخاطيء بالكونيات أضعاف أضعاف ما كان منها لدى بني اسرائيل عند ما أخرجهم موسى (ص) من مصر فكان من الحكمة الالهية أن ينزل على محمد في سبيل تصحيح تلك العقائد والمعلومات أضعاف ما تنزل على موسى في سفر التكوين . والحكمة البالغة في ذلك أن الدعوة إلى توحيد الخالق وتقرير الحق من العقائد وقبول ما يلي ذلك من الشرائع والأخلاق ما كانت لتجد سبيلها إلى قلوب عرفت للأجرام العلوية وأصلها وألوهيتها وتزاجها وما كان من أنسائها في تكون هذه الكائنات ونظامها ما قرره العقلية القديمة في بلاد مصر والأغريق وما بثته في جزيرة العرب وما حولها

أساطير الاشوريين والبابليين والكلدانيين . إذآ كان لزاماً أن يسرعى القرآن الناس الى وجه الخطأ فى عقائدهم وأن يشككهم فى الباطل الذى اتبعوه لانهم وجدوا عليه آباءهم وأن يطلقهم بذلك من الحجر الذى أشقاهم وأحقهم بالأنعام من الحيوان (٣) كانت إذآ مهمة القرآن الحكيم التى أرادها لتمهيد السبيل إلى التعريف بالخالق جل شأنه أن يبين للعقول بضرب الأمثال لم تفكر وفيم تفكر وكيف تفكر . فهو فى جهاده هذا كان يخطط أرض العلم لتقيم العقول البشرية عليها صروحه الشاخنة المتينة ، ويرسم الخطوط الأساسية للصور كى يملأها الرسام بما يلزم لها من الألوان والظلال ومعالم الجمال

(٤) لم يقف القرآن الكريم عند هذا الحد فيما ضرب لنا من الأمثال فى بيان بعض غوامض الحقائق الكونية بل جاء فى ذلك بمحائق أمر الأميين وغير المحصلين بالتسليم بها والتفويض فيها كأمر العقول الناضجة المقتدرة بطلابها والوقوف على دقائقها واللم بوجوده الصواب فيها . ثم نصح للفريقين أن يعترفوا بعجز عقولها والا يقطعوا بشيء فيما لا تبلغه أبحاثهم وسعيتهم بل ينهون أنفسهم بالعجز والقصور ويسألون أهل الذكر فيما لا يعلمون أو يكون أمر ما لا يدركون إلى من يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (٥) ان المسيحيين حينما ناروا فى وجه العلم ونظام الحكم نوراتهم التجديدية فى أوربة لم يكونوا يشبهوا فى شيء من مواقفهم تلك أحداً من الشعوب الاسلامية فانما كان مبعث حركتهم العنيفة ومصدر نورتهم الدموية ان رجال الكنيسة باسم الدين حجروا على العقول والوجدان وقرروا للكنيسة فلسفة حرموا على الناس حتى استيضاح ما غرض عليهم منها ثم قرروا تكفير من يقول بغيرها ولو اعتمد فى رأيه على الحسن والمعينة . حتى لقد كان منهم ميلاشتون وكيرمونيى اللذان رفضا أن ينظرا الى السماء بتناسكوب (الآلة المقربة) وقد روى عن غاليليو ان من تلاميذ المذهب الأرصطاطالى من كانوا ينكرون وجود أجسام علوية مرئية بالفعل وانهم كانوا يعتبرون فلسفة أرصطو كتلة واحدة لا تقبل التفكيك اذا نقض منها حجر أنها سائر بنيانها على أثره فكان ذلك سبب مقالاتهم فى التمسك بها والحرص عليها بمجتمعة

والآن وقد فرغنا من هذه المقدمات التمهيدية نتميز لكم ما سبق لنا الوعد به
فنقول

(١) تكون أصول جميع الكائنات من زوجين اثنين ولسان العلم الحديث
الكترون وبروتون

الآية (ومن كل شيء خلقنا زوجين اثنين) فما من شيء في الوجود الا
منه الذكر والانثى سواء في ذلك النبات والحيوان والجماد وغيرهن مما لا نعلم . وجاء
في بيان اجمال ذلك قوله تعالى (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض
ومن أنفسهم ومملا يعلمون) وفي عبارة « ومملا يعلمون » من المعاني ما يسكن اليه
عقل الانسان في كل زمان ويطابقه كما رأينا أحدث نظرية في أصول الأكون
(ب) تتولد الحياة من الماء

الآية (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وهذه الآية ناطقة بما يطابق العلم
الحديث في هذا الموضوع. ولقد رقت عقول قدماء المفسرين أزاء هذه الآية حائرة
قلقة فلم تدرك منها ذلك المعنى على ظهوره ووضوحه ولذلك وقع لهم في تأويلها خايط
كثير نضرب عنه صفحا هنا
(ج) تعدد الأرضين

لم يندكر القدماء شيئا في أمر تعدد الأرضين سوى ما نقله ابن سينا عن قدماء
حكاه الفرس من أن هنالك أراضى كثيرة غير أرضنا وما زال الرأي السائد بين
سائر الحكماء والفلاسفة يقول بعدم تعددها حتى جاء غاليليو المتوفى سنة ١٦٤٢
بمناظيره المكبرة والمقربة وكذلك من جاءوا بعده فأنبتوا بمشاهداتهم العينية
الصادقة أن السيارات جميعها اراض كأرضنا وقد يكون بها ما بأرضنا من الجبال
والوهاد والماء والهواء والخلاتق والعمران . ولم يعتمدوا في هذا التجوز إلا على
الحدس والظن فان مناظيرهم لم تثبت لهم ذلك بعد

أما القرآن فقد صرح بتعدد الأرضين في آية (الله الذي خلق سبع سموات
ومن الأرض مثلهن) ففي تفسير أبي السعود (من مفسرى القرن التاسع للهجرة)

ان الجمهور على أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض . وفي تفسير النيسابوري أنها سبع أرضين ما بين كل واحدة منها الى الأخرى مسيرة خمسمائة عام (١) وفي كل أرض منها خلق . . . (الى أن قال) وهم يشاهدون السماء من جانب أرضهم ويشهدون الضياء منها الخ . ومن أصرح الآيات في أن السيارات أراض مأهولة آية الشورى (ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة) اذ المراد بالسموات هنا السيارات على ما يأتي لنا من التأويل . ومن الآيات البينة في هذا الموضوع قوله تعالى « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض وما فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون »

ومن قصرت عقولهم من القدماء استبعدوا وجود الحيوان في الأجرام السماوية ولكن نفى الزمخشري والبيضاوي وغيرهما استبعاد أن يخلق الله فيها صنوفاً من الحيوان يمشون فيها مشى الإنسان على الأرض فالله خلق كما قالوا ما نعلم وما لا نعلم (د) السيارات هي التي تدور في مدارات وهمية وليست كما يقول قدماء الفلاسفة أنها ثابتة في أفلاك دائرة بها وأن هذه الأفلاك لا تقبل الخرق والالتئام الى آخر ماجاء للقدماء في وصفها والتعريف بها أما القرآن الكريم فيطابق الفلسفة الجديدة في آية « كل في فلك يسبحون » وآية « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » (هـ) الشمس جسم مشتعل تبث النور والنار من ذاتها وترسلها الى سياراتها المرتبطة بها وان اقتضى ذلك اضاعة أضعاف أضعاف ما يحتاجه كل سيار من أشعتها . والأجرام الكونية جميعها حادثة بالذات والزمان وقابلة للفساد والفناء . ومن الثابت بالحساب ان الشمس تفقد من مادتها في الثانية على أقل تقدير أربعة ملايين طن .

(١) مسألة تقدير المسافات التي بين السيارات مثلا بمسير خمسمائة عام يفسرها الشهرستاني بالدابة تسير فرسخاً إسلامياً في كل ساعة على ما هو معروف ومصطلح عليه في سائر الكتب الإسلامية مما يبلغ مجموعه نحو ١٦ مليون ميل تقريباً وهو قريب جداً من تقديرات المتأخرين للمسافات الفاصلة بين السيارات كما يقول ذلك الأستاذ في كتابه المسمى (الهيئة والاسلام) صفحة ٩٠ جزء أول

ولا ينبغي أن يزعم هذا عشاق الحياة الدنيا فإن الشمس على هذا الحساب تحتاج في
فقدتها جزءاً من مائة جزء من حجمها إلى مائة مليون سنة وخمسين ألف سنة . على
أنها بعد أن تصل إلى هذه الحالة نجدها لا تزال ترسل من نورها وحرارتها ما يجعل
الحياة في أكثر أجزاء هذه الأرض صالحة طيبة

آيات القرآن في ذلك « وجعل الشمس سراجاً » « جعلناها سراجاً وهاجاً »
قال مقاتل في تفسيره الوهج مجمع النور والحر وفي القاموس وهجت النار اتقدت
ومن الآيات « إذا الشمس كورت » أي ذهب حرها ونورها وآية « إذا السماء
انفطرت وإذا الكواكب انتثرت » « فإذا النجوم طمست وإذا السماء فرجت
وإذا الجبال نسفت » إلى أمثال هذه من آيات القرآن الكريم . وهنا يجعل أبها
السادة أن أذكر بالخير أحد مجتهدي الشيعة هبة الله المشهور بالشهرستاني وهو من
علماء عصرنا فقد وضع كتاباً فيما بين الهيئة الحديثة والإسلام من الاتصال فأنى على
بعض مباحث قيمة مفيدة بحسن أن اقتبس منها ما جاء له في بيان معنى السماء في
القرآن اذ يقول : -

(١) إذا وردت السماء والأرض معاً ومفردتين في آية كان الظاهر من الأرض
أرضنا ومن السماء ما علاها من الهواء والاجرام

(٢) وإذا ورد لفظ الأرض مفرداً ومعه السماء مجموعة كان الظاهر من الأرض
أرضنا ومن السموات الكرات والاجرام مطلقاً

(٣) وإذا ورد لفظ الأرضين مع السموات مجموعتين كان الظاهر من الاراضى
السموات والكرات البخارية المحيطة بها . ويقول صاحب هذه الضوابط انها قليلة
التخلف تكاد تطرد اطراداً كاملاً . وكذلك يقول اذا عني بالسموات الكرات
البخارية المحيطة بالطبقة الهوائية المحيطة بالأرض قبلت دعوى القائلين بأن بنتون
وفلكان ليس لهما سموات وان السموات خاصة بالسيارات الاخرى باحتمال قوى .
ويكون الاقتصار على تحديد الأرضين بسبع - مع أن فلكان وبنتون من الارضين
وانها تسع - لأنها ذكرت مع السموات السبع المبصرة بغير المناظير المكبرة
المقربة . وقد اكتشف بنتون وفلكان في سنة ١٨٤٦ م

هذا وتطلق اللغة كلمة السماء على كل ما يعلو الارض . قال القرطبي كل ما فوق الارض فهو سماء » وقال الطبرسي في مجمع البيان « كل ما علاك وأظلك فهو سماء » وجملة القول فيما قصده القرآن من كلمة السماء ان السماء : —

- (١) نفس الجو كآية « وجعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقرآ منيراً »
- (٢) الاجرام السماوية والسيارات كما في حديث « إن في السماء آدم كآدمكم ونوحاً كنعو حكم » وكما في آية « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة »
- (٣) جسم عظيم مكور محيط بالأرض ولكن اختلف الناس في فهم كنهه والمفهوم من بعض الأحاديث أنها كرة بخارية غازية وهذه مع كرة الهواء التي في جوفها تنحر كان مصاحبتين للأرض بجميع حرركاتها وفيها يقول الاستاذ فاندريك (جزء ثالث - النقش في الحجر) :

« أنا عائشون في قعر أوقيانوس سيال معدل عمقه على الأقل مائة مثل لعمق أوقيانوس الماء الغامر للكرة الارضية » وفي هذا المعنى جاءت آية « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالنا أتيننا طائعين » ففي مروج الذهب وابن ميثم في شرحه على نهج البلاغة أن المفسرين اتفقوا على أن الدخان الذي تكونت منه السماء كان عن تنفس الماء وتبخره . وفي كليات أبي البقاء كل دخان يسطع من ماء حار فهو بخار وكذلك الندى . وبهذا المعنى أتت الآيات السكرية (١) ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (٢) يوم تشقق السماء بالغمام (٣) وأنزلنا من السماء ماء و (٤) أو لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي (وذلك في رأى بعض المفسرين) وكذلك جاء قول الشاعر

إذا نزل السماء بأرض قوم
رعيناه وان كانوا غضابا

ولقد رويت بهذا المعنى أحاديث كثيرة تختلف درجات صحتها وفيها تسمى تلك الطبقة البخارية بالبحر المكفوف أي الذي لا يهبط ولا يسقط لانه في حالة بخارية (و) فائدة الجبال في الأرض وحكمتها انها مقام الاسان وغيره من السكائنات الحية أو شرط بقائها وحياتها اذ هي الجزء الجامد المرتفع الراسي الثابت المناسك الاجزاء والعناصر الصلبة . ولولا هذه الخصائص والصفات لمادت الارض يبحارها

ولا اضطربت بأمواجها كما يشاهد في القسم المائي منها وهناك لا يكون للإنسان بها مستقر ولا للعمران فيها سبب ولا مكان

ومن الآيات الواردة في ذلك المعنى (١) « وجعلنا في الأرض رواسي أن
تُميد بكم » و (٢) « وجعلنا الجبال أوتاداً » و (٣) « وألقى في الأرض رواسي أن
تُميد بكم »

وذلك أن الجبال لصلابتها وتماسك عناصرها وارتفاعها عن سطح البحار تكون
للإنسان مقاماً حصيناً لا يهدده طفيان الأبحر ولا يجترفه مضطرب الأمواج . ثم أنها
لشهورها ومختلف درجات ارتفاعها من الفوائد العظمى والشرائط الجوهرية الضرورية
للحياة والعمران والحضارة مالا يخفى على المحصلين . ومن الألفن والخطل أن تتخيل
الجبال كالأوتاد تُرَزَّ في الأرض أو الحائط لتربط بها الدواب خشية فرارها أو الخيمة
لبنائها وأقامتها على أعوادها فإن هذا المعنى ليس مما يخظر للعقل السليم . وما لنا نأخذ
بهذا التأويل السقيم ولنا في معاني الوتد لغة مالا يلجئنا إليه ؟

لقد سعى العرب الهنيئة الناشئة في مقدم الاذن وتدا فيقال « ما أملح وتدى
أذنه » كما استعملوا أوتاد البلاد لرؤسائها الظاهرين فيها وأوتاد الفم لأسنانه المثبتة في
فكيه . إذاً لماذا يقذف بنا الشطط في التأويل حتى نحمل كتاب الله العربي من المعاني
ما هو بعيد عن نظمه البديع ومراميه الطبيعية ؟ أفلا يعلم أولئك أن الجبال هي المثبتة
في الأرض كما يثبت وتد الدابة أو الخيمة في الأرض والحائط وأن الامر بهذا ينعكس
عليهم اذ تكون الأرض هي الوتد الذي تثبت به الجبال لا العكس

ثم ماذا عسى أن يكون مبلغ تأثير الجبال في الأرض من ناحية حفظ توازنها
ووقايتها ما يحل بها من الميدان والاضطراب كما يقول اولئك الواهمون . اننا نعلم أن
الله سبحانه وتعالى رفع السموات والأرض بما قدر لها من القوانين الكونية وما
أقام بينها من التجاذب فهو الرافع لها كما في القرآن بغير عمد مرئية للإبصار ولكن
جعلها سابحة في الفضاء محفوظة من السقوط والاضطراب والميدان فهي تسبح بقدر
في مدارها سبحاً لا يعتمره نشوز ولا نكوب مادامت تلك النواميس قائمة معقودة

معقودة بمشيئة مبدع الكائنات وفاطر الأرض والسموات (ان الله يمسك السماوات
والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده)

على أن نظرة واحدة الى نسبة ارتفاع أعظم الجبال الى قطر الأرض تدلك على
أن الجبال في الأرض ما هي الا كالهينات الناشزة في سطح جسم الانسان لا تقيم
بضآآتها وزنا لاعتمداله ولا توازنه ، فان رفعة تلك الجبال الشاهقة في كرة الأرض
على قلة عددها تتراوح بين خمسة آلاف من الامتار وتسعة آلاف مترتقريباً وبعبارة
أخرى تتراوح بين جزء واحد وبين جزء ونصف جزء من ثلاثة آلاف جزء متساوية
يقسم اليها قطر الأرض تقريباً (١)

ومن هنا يتجلى مبلغ ضآآة تلك الجبال في الأرض . أما الحكمة في وجودها
فقد سبق الكلام فيها واجماله أن الغرض هو اعدادها لعالم الحياة والعمران في كرة
الأرض واستخدامها لتخفيف البلاء والجهد عن سكانها من الاحياء واقامة معالم
الزينة والجمال في أقطارها وربوعها

يشير الى ذلك قوله تعالى (والأرض مددناها وألقينا فيها روائى وأنبقنا فيها
من كل زوج بهيج)



وبعد فقد آن لنا أيها السادة أن نكتفى بما قدمنا لكم من المجالات والامثال فان
في استقصاء هذه المباحث ما يحتاج الى ضخام المطولات . فحسبنا هنا ما تيسر لنا منها
والله المستول أن يوفقنا الى اكمال هذه الموضوعات وايضاها حقها من الشرح والبيان
خدمة للدين وهداية للمستهددين من المؤمنين
ولقد أجدنى لضيق المقام مضطراً أيضاً الى ارجاء الكلام في التكليف العيني
والوجدان الفردى الذى سبق لنا الوعد به الى فرصة أخرى تتسع لما فيه من المسائل
القيمة نسأله تعالى التوفيق

(١) قطر الأرض يساوى ٣٠٠٠ فرسخ

ذيل محاضرات

أثر القرآن في تحرير الفكر البشري

نقتبس في هذا الذيل طائفة من الآيات والاحاديث التي وردت حول موضوعات تلك المحاضرات على سبيل التمثيل لا الاستقصاء.

في الحديث الشريف

(١) الدين العقل ولا دين لمن لا عقل له

(٢) أننى قوم على رجل حتى بالفوا فقال رسول الله (ص) كيف عقل الرجل ؟ فقالوا اننا نمدحه بتقواه لا بعقله فقال ان الاحق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وانما يرتفع الناس غدا في الدرجات الزلنى من ربهم على قدر عقولهم

في القرآن الكريم

(٣) أمّن خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمّن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها روامى وجعل بين البحرين حاجزا إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون »

(٤) قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض ، أم لهم شرك في السموات ، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا

(٥) إله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين

(٦) سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق

(٧) انها لا تعى الابصار ولكن تعى القلوب التي فى الصدور

(٨) ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون

(٩) ومنهم من يستمعون اليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون

ومنهم من ينظر اليك أفأنت تبصر العمى ولو كانوا لا يبصرون

(١٠) وهو الذى مدّ الارض وجعل فيها روائى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون

(١١) كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرون . قل فله الحجة البالغة (١٢) واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله ما لا تعلمون

(١٣) لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (١٤) أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا انما أشرك ابائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفنتهلكنا بما فعل المبطلون

(١٥) ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا (١٦) ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير

(١٧) ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون (١٨) قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء

(١٩) وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء (٢٠) هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب (٢١) هل يستوى الاعمى والبصير ام هل تستوى الظلمات والنور ام جعلوا

الله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ (٢٢) قال الذين اوتوا العلم ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين (٢٣) فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون

(٢٤) ولا تقف ما ليس لك به علم . ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مستولا

(٢٥) يا اُبت انى قد جاءنى من العلم ما لم ياتك فاتبعنى اهدك صراطا شويبا

(٢٦) وقل رب زدنى علماً

(٢٧) سلام عليكم لا يبتغى الجاهلين

(٢٨) وان جاهدك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعمهما

(٢٩) وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون

(٣٠) بل هو آيات بينات فى صدور الذين اوتوا العلم

(٣١) ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير

(٣٢) تدعونى لا كفر بالله واشرك به ما ليس لى به علم

(٣٣) (قالوا) انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آئرانهم مقتدون (قال) اولو

جنتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم

(٣٤) ولقد اخبرناهم على علم على العالمين

(٣٥) نم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعملون

(٣٦) وأبلغكم ما ارسلت به ولكنى اراكم قوما تجهلون

(٣٧) بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم

(٣٨) ان فى ذلك لذكري لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

(٣٩) فاعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم

من العلم

(٤٠) فذكر انما أنت مدكر لست عليهم بمسيطر

(٤١) فانما على رسولنا البلاغ المبين

(٤٢) افجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون ؟

وهناك كثير من آيات القرآن الكريم مختمومة بمثل العبارات الآتية « قليلا

مانذكرون » « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » « ينونى بكتاب من قبل هذا

أو اشارة من علم ان كنتم صادقين » « ان فى ذلك لايات للعالمين » « ان فى ذلك

لايات تقوم يتفكرون « الى أشباه ذلك مما نجدونه منشورا في ثنايا الكتاب العزيز
والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات والصلاة والسلام على رسوله المبعوث
بالآيات المنجيات

كلمة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد العزيز البشري في هذه المحاضرات

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن هذا القرآن بهدى لاني هي أقوم « صدق الله العظيم .
إذا قرأت هذه المحاضرات فأخذك العجب ، ورجحك الطرب . ووقعت في
هذا الباب على فنون من القول لانصيها في غيرها ، ورأيت كلاماً يعلو على سواه
من ألوان الكلام ، فاعلم أن هذا كله لا ينهياً لـ كاتب مهما جل قدره وتمت كفايته
الا بهدى القرآن .

ولقد كان أول ما بعثت في قراءة هذه المحاضرات من الشعور أن أستاذي جاوياً
حين اعتمد القول في موضوعه لم يجتمع له اجتماع القالة والكاتبين ، ولم يتكاف في
تلوين الأدلة ولا تعمل في ترتيب الحجج ؛ بل إنما كانت تنتضح نفسه بما فيها من
الايان انتضاحاً . ولو كان القرآن يدعو ، لا أذن الله ، الى حقن الافكار والمصنف
بحرية الآراء ، وعرض الاستاذ لثل ما عرض له اليوم ما انتضح لإيمانه بغير ذلك . إنما
هو إيمان يتحدث . وإنما هو طبع يسيل .

الاستاذ جاوياً على جلاله محله بسعة العلم ، وشدة العقل ، وقوة الفهم ، وصفاء
النفس ، أجل محلاً بمتانة الايمان . وما أبدع هذا وأنغر إذا ظاهر أو لثك على تمكين
كلمة العلم والدين والدعوة الى كرائم الخلال . وكذلك كان شأن هذا الرجل من يوم نجم
في هذه الحياة : جهاد موصول لاهوادة فيه ولا هدنة . وسعى حيث الى تلك الغاية
من حيث ينفرج له وجه الطريق . فاذا نملك عليه هذا القطر ونب الى طلبها من
قطر غيره ، وهكذا لا يكمل ولا يعمل ولا يسأم ولا يزهد . وكذلك يطبع الله لهداية
خلقه رجالاً ، على أنهم لا مأرب لهم في هذه الدنيا ، الا أنهم مزدحمو الشعور بأنهم

مستولون عما يعترىهما من مكاره، وأولئك وان قلوا عدداً إلا أنهم كل شيء في هذا العالم

وبعد فن ساعة وقعت لي هذه المجموعة الكريمة وأقبلت أتلوها ومهدت نفسي
لأرسال كلمة في هذا الموضوع لم يشك ذهني معنى الأريث الاستاذ قد أصابه وجلاله
في أحكم نسج وأنجز تعبير . وكذلك خرجت منها وأنا لا أجد كلمة واحدة يمكن
أن تقال في هذا الباب لم يقلها الاستاذ في قوة وروعة وصفاء بيان
ولقد عاش الاستاذ جاويز بك قوة عاملة للدين والعلم والاخلاق . ولا أحسبه
عاش لنفسه يوماً واحداً ولا انقبض عن العمل لأولئك يوماً واحداً . فاذا نحن دعونا
الله تعالى أن يبسط في عمره ويسبغ عليه الصحة فقد دعونا لأنفسنا ولديننا بدوام
العافية . أحياء الله أطيب الحياة ، وسدد خطاه وأنجح مسعاه ما

عبر العزيز البشري

مصر في ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٤٦ (١٦ يونيو سنة ١٩٢٨)

كلمة

لحضرة الاستاذ الفاضل احمد يوسف نجاتي

أحد أساتذته البيان والادب بمدرسة دار العلوم

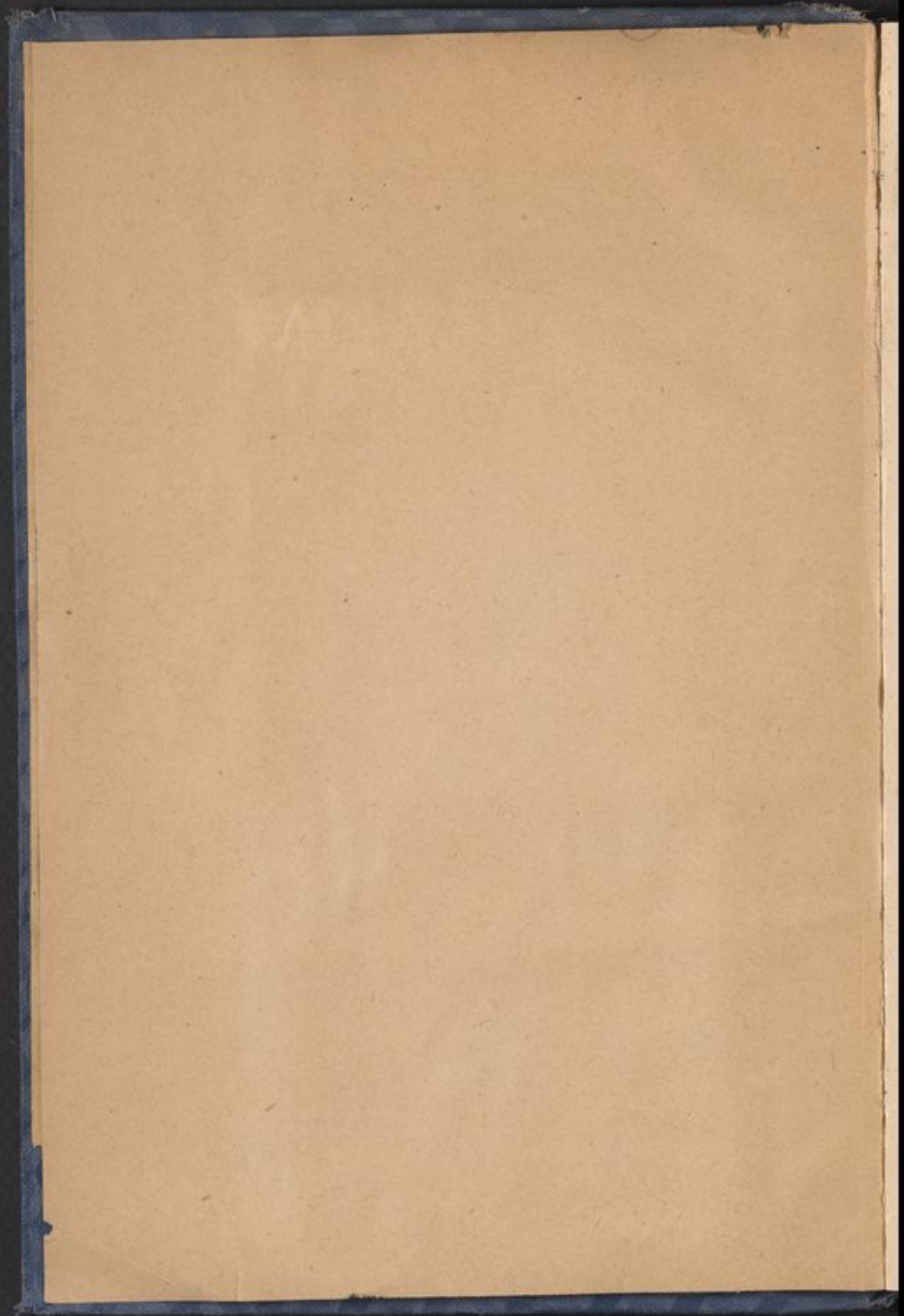
سرت في الشرق حركة مباركة حركت من ساكنه وبمئته من مرقد فنبهت
من كان غافلاً وأيقظت من كان نائماً . وقد سلم الشرق كله لمصر زمام زعامته فكانت
هي حاملة لوائه ، وكانت هي أسوته الحسنة وقدوته الصالحة ولا غرو في ذلك فهي
مركز حضارته وقطب الرحي من ثقافته فقد نهضت نهضة حميدة تجدد بها تاريخها ،
وحى بها موانها ، وثبتت للعالم أجمع جدارتها بما تسمو اليه ومشاركتها البلاد الحية
الراقية في نشر وسائل العمران وأسباب الحضارة والمدنية . ولقد تناولت هذه النهضة
فيها كل نواحي الحياة وعمت كل أرجائها وظهرت في مظاهر شتى من ألوانها ، ومن
أجل تلك المظاهر وأجلها انتشار المحاضرات في دور العلم ودور التربية ، وفي الجمعيات

والادبية العلمية والادبية وغيرها تبحث في كل مناحى القول ونهيم في كل أودية العلوم
فتنمي دائرة المعارف وتوسع نطاق الفكر ، وتمين على نشر الثقافة العامة وتقويمها
وقد سارت مدرسة دار العلوم كدأبها في طليعة تلك النهضة العلمية والادبية
فعميت بالقاء المحاضرات القيمة في مختلف المباحث النافعة ومتنوع الشئون الهامة ،
وعرف الناس لتلك المدرسة العالمية القدر فضلاً لا يجحد على النهضة العربية والحركة
الادبية وشهد لها كرام الناس أنها الحارس اليقظ للغة الفصحى ، والوصى الأمين عليها
وأنها خادمة لغة الدين وكتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
تنزيل من حكيم حميد ذلك الذي آخى بين العلم والدين وأوثق الصلة بين العقل والشرع
وكشف من أسرار الكون وعجائب الطبيعة ما لا تزال العلوم الحقة توبده . بل
تلمس قوتها منه وكما ارتقى عقل الانسان وتقدم فكره اهتدى الى ما كان حائراً في
فهمه منه وأسفرت له آياته عما كان محتجباً عنه فزاد إيماناً بذلك الوحي الالهي الذي
أخرج الناس من الظلمات الى النور فقا .

لقد ظهرت فأنخفي على أحد الا على أكمه لا يبصر القمر

ومن أفاد المدرسة بمحاضراته ذلكم العالم الجليل والاديب الكبير والناطقة العظيم
(فضيلة الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز بك مراقب التعليم الاولي بوزارة
المعارف) ذاكم العلم الواضح الذي ضم الى الثقافة الشرقية العربية الثقافة الحديثة
الغربية فجمع بين المزيين وانال منهما الحسينين وعنى منهما باللباب دون القشر فيز
الرشد من الغي وزاده تضلعه في العلوم الحديثة وتمكنه من اللغات الحية الراقية علما
الى علم وإيماناً الى إيمان وعرف من أسرار الكتاب الكريم والذكر الحكيم ما جهله
الذين التبتت عليهم سبل المدنية الصحيحة واشتبهت عليهم طرق الحضارة الحقة
فأخطأوا القصد وتاهوا عن المحجة فضلوا وأضلوا ومن يضل الله فلا هادي له والذين
اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم

سمح فضيلة الاستاذ مع كثرة أعماله التي يضيق عنها الوسع ولا يتسع لها الذرع
أن يلقي بالمدرسة محاضرات جلييلة نثرها درراً على السامعين فأحكم الصلة بين العلم



DATE DUE

J3
1928



BP
130.6
J3
1928

BP
130.6
J3
1928